

روح عظم المهاجرات غاندي

عنايت محمد العفاد

اهداءات ١٩٩٩

١/ محمود محمد علي العيسوي

الإسكندرية

عباس محمد العقاد

روح عظيم المها تمنا عايدى

شركة ترفيد الطابعات
صندوق بوشته ٤ شارع مصر - تلخون ٥٨١٤٩

زاهد المذنبى الدنيا وصام أنا انعاها ، ولكن لا أصوم
طامع الغربى عى الدنيا وهام أنا أرعاها ، ولكن لا أهيم
بين هذين لنا حد قوام وليلى من كل ضرب من ليوم

يعبد الأقسام ما يخشونه وأنا أعبد ما لست أخاف
ليس ينسى من ينسونه فعلام البحث فيه والخلاف ؟
ان وصلتم أو وقضتم دونه لم يقف دون مقام أو مطا

شرعك الحسن فما لا يحسن فحولوا بجلو ، وان جل الحرام
لبس فى الحق اثنائهم بين غير مسخ الحسن أو نقص النمام
ما عدا هذين مما يمكن فاستبجى ، وعلى الدنيا السلام
للمؤلف

آفاق الإنسانية

آفاق الإنسانية واسعة ، وأغوارها عميقة ، ومداهها من الزمن بعيد .

وحق على كل إنسان أن يذرع هذه الآفاق ، وأن يسبر هذه الأغوار ، وأن يبسط الرجاء على هذا المدى البعيد .

لأنه يعلم سيرة هذا الإنسان وحسب ، ولا لأنه يحيط بتاريخ هذه الأمة وكفى ، ولكن لأنه يحقق معناه ، ويبلغ به كماله ، كلما عرف غاية من الغايات التي تنتهي إليها طاقة الإنسان .
وليس أعون له على ذلك من سير العظماء ، لأنهم يتماثلون ويتناقضون ، ويعرضون لنا ألواناً من القدرة ، وأنماطاً من الفطرة ، وكلهم بعد ذلك على خلق عظيم .

وليس أجدر من عظمة « غامدى » بالمقابلة بينها وبين غيرها من ضروب العظمة الإنسانية ، لأنك تقابله بألف عظيم من الأقدمين والمحدثين ، كلهم يخالفه في كثير أو قليل أو يناقضه في كل صفة من الصفات ، وهو بعد ذلك عظيم ، وكلهم بعد ذلك عظماء .

والإنسانية العظيمة تطويهم في رحابها أجمعين .
هذه صفحات تنزع إلى هذه الغاية ولا تنزع إلى غاية
غيرها . ليست هي بسجل حوادث ولا تقويم أيام ، ولكنها
مرآة صغيرة يبدو فيها مناط العظمة من « مهاتما الهند » . . .
وهو الروح العظيم .



الغاية الالهية وتاريخ الانسان

هل للتاريخ الإنسانى وجهة معينة نستطيع أن نتبينها من جملة الحوادث الماضية ؟

هذا سؤال يتوقف جوابه على سؤال آخر . وهو : ماذا عسى أن تكون وجهة التاريخ المعقولة إذا تخيلنا له اتجاهاً يتوخاه على نهج مرسوم ؟
شئ يتعلق بالإنسان الفرد .

وشئ يتعلق بالناس كافة ، أو بالإنسانية جمعاء .
فالشئ الذى يتعلق باتجاه الإنسان الفرد هو ازدياد نصيبه من الحرية والتبعة .

والشئ الذى يتعلق بالإنسانية جمعاء هو ازدياد نصيبها من التعاون والاتصال .

وزيادة نصيب الفرد من الحرية والتبعة هو المطلب الشامل الذى تنطوى فيه جميع المطالب ، فهو أشمل من القول بازدياد العلم أو ازدياد القوة أو ازدياد الفضائل والمملاكات ، لأن هذه الخصال كلها تشمل فى زيادة استعداده لحق الحرية وزيادة قدرته على احتمال التبعة .

وكذلك يقال عن التعاون بين عناصر الإنسانية برمتها ،
فهو أشمل من القول بارتقاء النظم السياسية ، وارتقاء المعاملات
التجارية ، وارتقاء الأخلاق الاجتماعية . لأن هذه الخصال
كلها تتمثل في التقارب بين الأمم والتعاون بينها على وسائل
الوحدة والاتصال .

هذا وذاك هما الوجهة المعقولة التي نتخيلها للفرد وحده ،
وللناس كافة ، إذا كان للتاريخ وجهة معقولة تدل عليها الحوادث
الماضية .

وهذا وذاك هما في الواقع سبيل الاتجاه الوحيد الذي
يُطَرَّد في حوادث التاريخ .

فكان الإنسان الفرد قبل نشأة القبيلة هملاً مستباحاً ،
لا يُحفظ له حق ، ولا يُفرض عليه واجب ، ولا ينال من
الحرية إلا ما يغفل عنه المعتدون عليه .

ثم نشأت القبيلة فنشأ معها للفرد نوع من الضمان . ولكنه
ضمان شائع لا يستقل فيه بحرية ولا بتبعة . فيؤخذ بذنب
غيره في الثأر والمغرم ، ويقاسمه غيره فيما يغنمه ويستولى عليه .
فهو رقم متكرر وليس بكم مستقل في الحساب .

ثم نشأت الأمم فازداد نصيبه من الحرية كما ازداد نصيبه
من التبعة . وأصبح المقياس الوحيد لارتقاء الأمة هو مقدار
حظ الفرد فيها من الحريات والتبعات .

فليس لارتقاء الأمة علامة أصدق من هذه العلامة :
وهي حريات الفرد وتبعاته ، بل ليس للارتقاء عامة علامة
غيرها يطرد بها القياس في جميع الأمور ، أو كما قلنا في كتابنا
« هتلر في الميزان » ، إن : « مقاييس التقدم كثيرة يقع فيها
الاختلاف والاختلال . فإذا قسنا التقدم بالسعادة فقد تتاح
السعادة للحقير ويحرمها العظيم ، وإذا قسناه بالغنى فقد يغنى
الجاهل ويفتقر العالم ، وإذا قسناه بالعلم فقد تعلم الأمم
المضمحلة الشائخة وتجهل الأمم الوثيقة الفتية . إلا مقياساً
واحداً لا يقع فيه الاختلاف والاختلال : وهو مقياس
المسؤولية واحتمال التبعة . فإنك لا تضاهي بين رجلين أو أمتين
إلا وجدت أن الأفضل منهما هو صاحب النصيب الأوفى من
المسؤولية ، وصاحب القدرة الراجحة على النهوض بتبعاته ،
والاضطلاع بحقوقه وواجباته . ولا اختلاف في هذا المقياس
كلما قست به الفارق بين الطفل القاصر والرجل الرشيد ، أو
بين الهمجي والمدني ، أو بين المجنون والعاقل ، أو بين الجاهل
والعالم ، أو بين العبد والسيد ، أو بين العاجز والقادر ، أو بين
كل مفضول وكل فاضل على اختلاف أوجه التفضيل ... »
تلك هي وجهة التساير المطردة في حالة الإنسان الفرد
حيث كان .

أما وجهته في حالة الإنسانية كلها فالإتجاه إلى التقارب
بينها مطّرد متعاقب في كل مرحلة من مراحل التاريخ .
ونحن الآن في عصر يُلسنا هذا التقارب في كل علاقة من
علاقات العالم المعمور : في المواصلات ، وفي المعاملات ، وفي
الروابط السياسية ، وفي نقل المعلومات وإذاعة الأخبار ، وفي
هذا التضامن التام الذي يجعل الأزمة في ناحية من الأرض أزمة
قريبة يحس بها أبعد الأمم من تلك الناحية ، أو يجعل القوى مهما
بموقف الضعيف منه ، مهما يكن من اعتزازه بالسطوة والثراء .
ولم تكن الحروب ولا المطامع حائلا دون هذا الإتجاه .
بل لعلها كانت من دوافعه ودواعيه ، فأسفرت كل حرب من
حروب الرومان والفرس والعرب والصليبيين والعثمانيين عن
تشابك بين ناحية وناحية من الكرة الأرضية ، ومن جراء
هذه الحروب تشابكت آسيا وأوروبا وأفريقية ، وانفتح الطريق
إلى القارات المجهولة .

وإذا نظرنا إلى أثر الحروب في المخترعات وتسخير قوى
الطبيعة جاز لنا أن نقول : إن وسائل المواصلات قبل غيرها
مدينة للحروب بالشئ الكثير . فماذا يكون الطيران والرادار
ومحركات القوى جميعاً ، لولا ضرورات الحروب واشتراك
غريزة الدفاع عن النفس في سباق هذا المضمار ؟

بل نحن نتعلم من التاريخ أن الدولة الفاتحة لا تدوم إلا
بمقدار ما يكون لدوامها من رسالة عالمية .
فدولة الرومان دامت حين كانت لازمة للعالم ، وأخذت في
الانحلال حين بطلت رسالتها العالمية واستلزم التحول في أطوار
الأمم واتساع مجاها رسالة عالمية أخرى على غير ذلك النظام .

* * *

ولنبحث عن دلائل هذا الاتجاه في تاريخ الأقليم الذي
نتكلم في هذا الكتاب عن بطل من أبطاله : وهو الإقليم
الهندي ، أو الأقاليم الهندية على التعبير الصحيح .
فقد كانت حروب الاستعمار الأوربي محنة طامة على الشرق
بأسره ، نقم منها الشرق لما أصابه من بلواها ، ورغب فيها
الغرب لأمر أراده وأرادت الحوادث غيره ، ولم يخطر للشرق
ولا للغرب على بال .

لم تكن الهند قط وطناً واحداً في عصر من العصور .
لأنها كانت تتألف من شتى العناصر ، وشتى المذاهب ،
وشتى اللغات ، وشتى المصالح ، وشتى المواقع الجغرافية .
فلم تدافع قط دفاعاً واحداً ، ولم تشترك قط في هجوم
واحد ، ولم تجمع قط على مطلب واحد بينها وبين أبنائها ،
ولا بينها وبين الغرباء عنها والمغيرين عليها .

فلما ابتليت باستعمار واحد طغى عليها من أقصاها إلى أقصاها ، وجد فيها « وطن واحد » ، يواجه ذلك الاستعمار بمطلب واحد ، وهو مطلب الخلاص منه ، كيفما تعددت وسائله بين طلابه .

وولدت الهند مولداً جديداً في التاريخ .

وزال الاستعمار أو كاد ، وبقيت الهند الجديدة ، وبقيت معها علاقات يشتبك فيها الشرق والغرب . وتنتظم في الوحدة الإنسانية ، على نحو لم تعده ولم تحلم به قبلحنة الاستعمار .

* * *

إذا كان اتجاه التاريخ المعقول هو الاتجاه الذي تنتهى إليه الحوادث في حياة الفرد وحياة الإنسانية عامة .

وكان هذا الاتجاه مما تلتقى عليه عوامل الوفاق وعوامل الشقاق ، ويتوافق عنده ما يراد وما لا يراد .

فن عمل المؤرخ الباحث ، لا من عمل المتدين المؤمن فحسب ، أن يفهم للتاريخ معنى غير معنى المصادفة العمياء ، وأن يرى للعالم مصيراً مقدوراً يفضى إلى غاية هذا الاتجاه ، حيث تهديه عناية الله .

روح الهند

ونعني بروح الهند مايقابل « السيكولوجية القومية » ، التي تتميز أمة من أمة في الخصائص النفسية .

وليس من اليسير أن نتكلم عن سكان الهند كأنهم أبناء قومية واحدة . لأنهم لم تتفق لهم قومية في العنصر ، ولا في اللغة ، ولا في العقيدة ، ولا في الدولة ، ولا في المعالم الجغرافية . فلم يشعروا قط في تاريخهم القديم بشعور أبناء الدولة الواحدة .

ولم يجمعهم نط نثار وطني واحد ، أو عصبية قومية واحدة فليس من اليسير أن نتكلم عن روح الأمة حين لا تكون هناك أمة .

ولكن هذه الخاصة السلبية هي في الوقت نفسه جامعة الهند الكبرى . لأن خلو النفس الهندية من دواعي العصبية القومية قد فسح الطريق لشعور آخر يشغل تلك النفس ويستغرقها في مكان العصبية القومية ، وهو الحاسة الدينية أو الحاسة الروحانية .

فاتجهت النفس الهندية إلى هذا الشعور بقوة واحدة .

إذ كانت الأمم الأخرى تشغل جانباً من روحها بالنخوة الوطنية وجانباً منه بالحياة الروحية . فكانت العقيدة للهندي ملاذ جسد وملاذ روح ، وعوضاً من نحر الدول وعصية الأقوام . قال « تاجور » ، في محاضراته التي ألقاها على الأمريكيين عن القومية في العالم : « أنه لما كانت مشكلاتنا في الهند داخلية أصبح تاريخنا تاريخ معالجة أخلاقية دائمة ولم يكن تاريخ قوة منظمة للدفاع أو الهجوم . وما كانت العالمية الغامضة التي لا لون لها ، ولا الوثنية العارمة التي تتراعى في عبادة الأمة لنفسها لتكون هي الغاية القصوى الذي يسعى إليها تاريخ بني الإنسان » .

وكأنما أراد الشاعر الكبير بكلامه هذا أن الهند بدأت حيث تنتهى أمم أخرى . لأن كفاح القوميات سينتهى لا محالة إلى تعميم الآداب الإنسانية ، أو إلى حل المشكلات الأخلاقية ، وهى المشكلات التي فرضت على الهند بحكم حالتها الخاصة منذ بداية تاريخها .

أما الأمة ، كما عرفها الغرب ، وعرفتها أقوام أخرى ، فهى كما يقول تاجور : « وحدة سياسية اقتصادية ليس لها غرض خارجى — أو غرض إنسانى عام — لأنها هى غرضٌ لنفسها .. إنها تعبير لدنى للإنسان باعتباره كائناً اجتماعياً ... ولها غاية

سياسية ، ولكنها تتجه إلى غرض اجتماعي هو حفظ الذات..
إنه جانب القوة وليس بجانب المثل الإنسانية العليا .

ولا بد في رأى الشاعر من تقارب الرأى بين الوجهتين
لأن الغرب ضرورى للشرق ضرورة الشرق للغرب ، وإنما
هذا الاختلاف في وجهات النظر إلى الحياة هو الكفيل بأن
يعطى الإنسان صوراً مختلفة للحق والأخلاق .

وكلام الشاعر عن الفارق بين الوجهتين صحيح في جملة
حدوده . فإذا عمل صاحب القومية للجماعة التى هو واحد منها ،
فصاحب العقيدة الروحانية يعمل « لروح الإنسان » . أو يعمل
لغاية إنسانية تتجاوز الفرد كما تتجاوز الجماعة . إذ هى ليست
غاية إنسان بعينه ، وإنما هى غاية « الإنسان » حيث كان .

وغاندى ، نبي الهند ، يفهم وطنه كما يفهمه تاجور شاعر
الهند ، ويشعر به على هذا النحو من الشعور . فكان يقارن
بين السواراج أو الاستقلال ، وبين « الالهسا » أو ضبط
النفس ، ومقاومة العنف بالحسنى ، فيقول : إن الالهسا مقدمة
على السواراج لأنها هى الاستقلال الصحيح . ويريد بذلك
أن غاية الاستقلال هى خلاص البلاد من الحكومة الأجنبية.
ولكن الإنسان قد يحكم بلده ولا يحكم نفسه ، ولا يفلت من

طغيان شهواته وأهوائه . وإنما كان حكم النفس هو الاستقلال
جد الاستقلال .

وقد يكون الهندي مسلماً لا يدين بالبرهمية ولا بالنحل
التي تفرعت عليها ، ولكنه يظل هندياً في هذه الخاصة الهندية :
وهي أنه ينوط وجوده باعتقاده ولا ينوطه بموضع ميلاده ،
ومن هنا كانت دولة الخلافة أهم في نظر المسلم الهندي من
القضية الوطنية في داخل بلاده . وكان موقف الدولة البريطانية
من الخلافة العثمانية هو الذي يعين موقف الهنود المسلمين من
تلك الدولة ، ويمنح بهم تارة إلى موالاتها وتارة إلى الثورة عليها .
بل قد يكون الهندي عالماً من أفذاذ علماء الطبيعة ، كما
كان جاقاديس بوز Jagadis Bose نابغة العلوم الطبيعية
والنباتية في زمانه (١٨٥٨ - ١٩٣٧) . ولكنه لا ينسى هذه
الروحانية في بحوثه وتجارب معمله ، فكان يؤلف الكتب
في جهاز النبات العصبي ، وفي استجابة الأحياء وغير الأحياء
للؤثرات الطبيعية ، ويخلص من ذلك إلى القول بوجود روح
للنبات وشيوع الحس الروحاني في سائر الموجودات ، كأنه
يخلص إلى القول « بوحدة الوجود » من طريق العلم وتجارب
« الفيزية » والكهرباء .

ولا نحسب أن الخلو من الدولة وحده هو الذي نزع



خاندي و تاجور

بالنفس الهندية هذا المنزع الذى تفردت به أو كادت بين
النفسيات القومية . فإن الهند قد اجتمع لها من مظاهر
الطبيعة وأنواع الأحياء ما لم يجتمع لإقليم آخر . فكانت خليفة
أن تنظر إلى هذه المظاهر وهذه الأحياء نظرة شاملة لكل
ما فى الحياة ، وأن تجعل حقيقة الوجود ماثلة فى كل صورة
من صورها ، وكل نموذج من نماذجها ، ولا تفصل بين بعض
منها وبعض فى معالم الوجود ، كما يحدث أحياناً فى كل وطن
يستأثر به نوع من المظاهر أو نوع من الأحياء .

هذه الروحانية هى سمة الهند الكبرى . وهى التى تفسر
لنا كثيراً من غوامضها ، وغوامض أبطالها ، ومنهم — بل
فى طبيعتهم — غاندى ، موضوع هذا الكتاب .

وقد يحسن بنا أن نقول : إن الحاسة الروحية تراد هنا
بمعناها الذى تقابله الحاسة الوطنية أو الحاسة القومية ، وليس
من الضروري أن تقابل « الحاسة المادية » أو الحاسة الجسدية .
فقد يكون الهندى منغمساً فى شهوات الجسد ومطامع المال
والسلطة كما يكون أبناء الأمم الأخرى ، ولكنه يخالفهم فى
إحساسه بمعنى الوطن ومعنى الدين ، ويخالفهم فى إيمانه بالغاية
القصوى من الحياة الوطنية .

وهذا هو الفارق المهم فى هذا الموضوع .

نشأة غاندى

من العظماء من يستطيع المؤرخ أن يهمل تاريخ أسرته ولا خسارة عليه ولا على العظيم الذى يكتب تاريخه . لأن فهم ترجمته لا يردنا إلى تراجم آباءه وأجداده ، ولا يزداد وضوحاً بالرجوع إليها .

ومنهم من ترتبط ترجمته وترجمة أسرته كما يرتبط الفصلان فى قصة واحدة ، فلا تفصله سيرته عن سيرهم إلا عرض لها بعض النقص ، أو بعض الحاجة إلى التساؤل والتفسير . ذلك هو العظيم الذى تعرف أخباره وأخبار قومه فلا تزال تقول : نعم هذا هو جده الصالح ، هذا هو الأب الذى ينبجله ، هذه هى الأم التى تغذوه بلبانها وتنشئه فى حجرها وتلقنه حروفه الأولى .

وغاندى من هؤلاء العظماء ، بل من أندر الأمثلة على الصلة بين حياة الأبناء وحياة الآباء .

كانت أسرته أصليح أسرة يخرج منها قديس مثله ، وكانت أمه على الخصوص هى الأم التى لا نستغرب خلقاً من أخلاقه ، ولا عملاً من أعماله ، إذا عرفنا سيرتها وعرفنا

ما تلقاه من كيانه وما تلقاه من قلبها ولسانها .
 كان جده « أوتاغاندى » رئيساً للوزراء فى « پور بندر »
 أو البلدة البيضاء ، وكان مع اشتغاله بالسياسة رجلاً لا ينسى
 عهده ولا ينقض وده . ألقاه صراحتة إلى ترك وظيفته
 والهجرة من بلده واللياذ بأمر إقليم « جوتا جاد » . فلما لقي
 الأمير سلم عليه بيده اليسرى إيداناً من اللحظة الأولى ببقائه
 على عهد أميره الأول ، وقال : إن يدى الينى هى اليد التى
 عاهدت بها أمير « پور بندر » ، فلا أعاهد بها مرتين !
 وكان أبوه كرمشاندغاندى — أوكاباغاندى ، كما عرف
 بين أهله — هو الولد الخامس لجده ، والولد الأول من زوجته
 الثانية . وقد كان وزيراً فى « راجكوت » ، ثم وزيراً فى
 « فانكانار » . ومات وهو يتقاضى معاشاً من حكومة
 راجكوت . . .

وفقد كاباغاندى زوجتين قبل أن يتزوج بأمر غاندى
 « بوتلباي » ، ثلاثة زوجاته ، ورزق منها بنتاً وثلاثة أبناء :
 أصغرهم هو « المهاتما » . . . الذى سمي موهانداس .
 وليس « كاباغاندى » قديساً ولا « مهاتما » كولد الصغير ،
 أو ولده الروح العظيم . ولكن ليس فى خلائقه ما يمنع أن
 يكون أباً لقديس أو مهاتما ، لأنه كان رجلاً صادقاً أميناً

مستقيم الطوية . لا يؤخذ عليه ، إلا أنه كان غضوباً في صراحته إذا كان في الصراحة وفاء بواجب : تطاول بعض كبار الساسة على أميره في غيبته فحفظ الوزير الأمين غيبة أميره ورد على السياسى الكبير سوء المقالة بمثلها ، فحبس ليعتذر ، فلم يعتذر ، فأطلقوه .

وقد يؤخذ عليه أنه بنى بزوجه الرابعة وهو فوق الأربعين ، ولكنه لم ينقض بذلك عرفاً ولا خرج على عقيدة . وإنما هي النزعة الجسدية التي ورثها منه ابنه ، وغالبها فغلبها حين نذر نفسه للقداسة والجهاد .

أما أمه « بوتلباي » فلك أن تقول إنها قديسة غير ذات رسالة . كانت تكتفي في اليوم بوجبة واحدة من الطعام ، وكانت تصوم في معظم الأيام ، وكانت على غيرتها الدينية متصرفة في عقيدتها . فقد قيل إنها نشأت من الطائفة الفشنائية الهندوكية ، فتحولت إلى العقيدة « الجينية » لأنها وجدتتها أقرب إلى النسك وأقرب إلى الكمال .

منها تلقى الوليد الصغير إيمانه بالصيام ، فكان عادة له في حياته الخاصة ، وكان عادة له في حياته العامة ، بل كان أكثر من عادة في هذه الحياة التي حفلت بأحداث السياسة . . كان حصناً يلوذ به لينتصر فيه أوليوت . فنذر الصيام خمس

عشرة مرة ، آخرها صيامه الذى نذره قبيل وفاته لكف
عدوان الهندوكيين عن المسلمين ، وطال خمسة أيام . وقد طال
صيامه خمسة وعشرين يوماً فى إحدى هذه المرات .
ومن أمه ، أخذ ما كان أفعل فى تاريخه وتاريخ الهند
كلها من الصيام ، وهو الإيمان بعقيدة الجينية فى « الاهمسا » .
أو الكف عن العدوان .

فلا تنفصل عن « الاهمسا » حركة من حركات غاندى ،
ولا دعوة من دعواته ، ولا علة من علل نجاحه ، ولا خليفة
من الخلائق التى راض عليها عقله وطباعه . ولا تفهم رسالة
لغاندى فى السياسة أو السلوك أو آداب الضمير ، بمعزل عن
هذه « الاهمسا » التى كان أصدق رسول لها منذ ارتفعت بها
دعوة فى البلاد الهندية ، لأنه رضعها من ثدى أمه ، قبل أن
يتعلها من مرشد إلى أدب ، أو مبشر بدين .

ولد موهانداس فى اليوم الثانى من شهر أكتوبر
سنة ١٨٦٩ ، فى بلدة « پوربندر » كما تقدم . وهى بلدة من
إقليم يقع بين السند وبومباى يسمى السكوجرات ، وينفرد
بلخته وبعض عادات أهله بين الأقاليم الهندية .
وقد روى لنا غاندى فى سيرة حياته ، أو فى

اعترافاته ، شيئاً من المحن التي عرضت له في صباه .
قال : إنه كان جباناً ، وكان يستمع إلى الأحاديث عن
اللصوص والأشباح والشعابين فيفزع منها ولا يجرؤ على
الخروج من بيته في الظلام ، ولا ينام في حجرته إلا على نور .
وظل كذلك حتى تزوج — وقد تزوج في الثالثة عشرة من
عمره على عادة أهل الهند جميعاً من الزواج الباكر — فكان
يخجله أن يرى زوجته الصغيرة أقدر منه على مواجهة الظلام .
ونحن ننصف الرجل من تواضعه لإنصافاً للحقيقة فيما
نراه . فقد يُسمّى ما وصفه جبناً ، إذا كان الرجل قد عُرف في
جميع أيام حياته بمحادث واحد يشف عن خوف من المخاطر
المادية أو ماهو أرهب منها وأهول على الضمير : وهو المخاطر
النفسية . وليس من المعقول أن يؤدي الإحساس بالجبن إلى
انقلاب في طبيعة الإنسان يجعله من أشجع الناس وأقدرهم
على مواجهة الخطوب التي يتقها أشجع الشجعان . وإنما
نسمى « الجبن » هذا بوصف آخر هو الوصف الذي اشتهر به
الرجل طول حياته : وهو ملكة التصديق والإيمان . فلا فرق
عند صبي مطبوع على ملكة التصديق والإيمان بين شيء
يصدقه وشيء يمسّه ويراه . وقد كان حديث المردة والسطار
والشعابين حديثاً مشاعاً بين أطفال الهند يسمعون له كلما أصغوا

إلى أقاصيص العجائز في بيوتهم ، فكان يؤمن بوجودهم حيث
توهمهم كأنه يلبسهم ويراهم . ونحن لا نصف بالجن إنساناً
يتقى مكان اللصوص وجحور الحيات في الظلام . ولكننا
نصفه بالحيلة الواجبة على الرجل العاقل ، ونلومه إذا استطاع
أن يقهر المخاوف فأحجم عن قهرها ، ولكننا لا نطلب منه
أن يتصدى لقهرها في ليله ونهاره بغير داع يدعو إلى منازلتها ،
وهو قادر على اجتنابها .

إلا أن اعتقاد غاندى الجبن في نفسه خطأ له شأن يذكر
في تاريخ نشأته ، لأنه دفع به إلى تجارب نفسية كان لها أثر بليغ
في تكوين خلقه واعتقاده .

ففي صباه كان صبيان الهند جميعاً يتهمون أنفسهم بالجبن
ويحسون بالنقص كلما عقدوا المقارنة بينهم وبين شبان
الإنجليز ، وكانت تسرى بينهم أبيات من الشعر نظموها
بالإنجليزية نترجمها في هذه الأبيات :

أنظر إلى ابن انجلترا منتصراً مظفراً
يسطو على الهندي والهندي يشكو القصر
لا كلة اللحوم طال واستطال وازدرى
ووقر في أنفسهم أنهم يكسبون الشجاعة وقوة الخلق
إذا نبذوا معيشتهم ، وأكلوا وشربوا ودخنوا وقصفوا ولعبوا
كما يفعل الشبان الإنجليز .

ووسوس بهذا إلى غاندى زميل من زملاء المدرسة ،
فسرق غاندى دريهمات من خادمه ليصبح بطالا تعزز به الهند
في وجه الدولة البريطانية ... وأكل اللحم المحرم ، وهمّ باستباحة
غيره من المحرمات . وجرّ أنه السرقة الأولى على سرقة أخرى ،
فعاد إلى السرقة في المرة الثانية لأنه رأى دائماً يلح على قريبه
في طلب دين عليه ، فاختلف من يد ذلك القريب قطعة ذهبية
ليؤدى عنه دينه الذى يطل به غريمه .

وعز على غاندى وصاحبه أن يختلسا القوة هكذا ،
و ألا يجسر أحدهما على مكاشفة أهله بما يفعل . فساورها
الأسف وحز في نفسيهما الكبت والروغان ، وفكرا في
« الانتحار » واشتريا السم فعلا وأكلا منه ، ولكن دون
المقدار الذى يميت .

وخيل إلى غاندى فترة من الزمن أنه ينكر كل عقيدة
ويلحد في الله . إلا أنها كلها محنة عارضة لا مفر منها لقديس
صغير . فإن القديس الصغير لا يولد وهو قديس كبير ،
فخشيتة الصدمة الأولى كما لا بد أن تغشاه ، وكانت غاشية
غريبة عن طبيعته ومزاجه وتربيته ، فلم يلبث طويلا حتى ثاب
إلى إيمانه وتقاليد قومه . فاجتنب اللحم وعافه حتى بات يتقزز
من رؤيته ويفزع من الحلم بمنظره ، وكان به بوالديه —

ولاسيما والدته ، من أكبر أسباب توبته ورجوعه إلى سالف اعتقاده ، لأنه أشفق أن يعلما باستباحته أكل اللحم ، وهي فظاعة عندهم كفضاعة أكل الخنزير عند المسلم ، وأنف أن يكذب عليهما ويلقاهما بالرياء والخداع ، ولم يكن من طبعه نهماً ولا مسترسلاً مع الإباحة والإنكار . فعاد بعد هذه الغاشية إلى إيمان أثبت من إيمان الطفولة وأقوى .

وتزوج غاندى ، كما تقدم ، على عادة قومه وهو فى الصبا الباكر . فخطبت له الصبية « كسترباى » من عشيرته وهو فى الثامنة ، وبنى بها وهو فى الثالثة عشرة ، ولم يبلغ العشرين حتى صار أباً لأربعة أطفال ، أكبرهم « هيرالال » الذى مات بعد مقتله ببضعة أشهر ، وكانت وراثته « الغاندية » قلقاً دينياً خامر منذ صباه . فلم تعجبه الجينية ولا البرهمية ، وانتحل الإسلام والمسيحية ، واعتزل أهله منذ فارق نحلة الأسرة إلى أن مات (يونيو ١٩٤٨) .

ولا يذكر غاندى بالرضى زواجه فى هذه السن المبكرة . فكتب فى ترجمة حياته أن أهله أصروا على تزويجه ، وتزوج أخيه ، وأحد أبناء أعمامه فى يوم واحد ولم ينظروا إلى مصالحنا ولا عنوا بسؤالنا ، كأنما كل ما فى الأمر أنهم راضون وأنهم قادرون على تكاليف الزفاف ، وليس الزواج

عند الهندوكيين بالأمر الهين . فقد يجر الخراب على أسرتين ، وفيه ما فيه من تضييع المال والوقت وقضاء أشهر في إعداد الملابس والحلى وأدوات الزينة وإقامة المآدب ، ومباراة كل من الأسرتين للأخرى في النفقة ، لتبذرها في السرف ومظاهر الوجاهة .

وأصاب غاندى فى امتعاضه من هذه العادة التى لآخر فيها ، لأن نفقات هذا الزفاف الضخم قد نالت من ثروة أبيه وهى ليست بالثروة الطائلة . فقد كان الرجل أعف من أن يستخدم منصبه لابتزاز المال . ولعل امتعاض غاندى من تزويجه فى هذه السن على غير موافقة منه قد ظل عالقاً بنفسه إلى أن تولى زعامة قومه ، فأنهى على هذه العادة أشد إنحاء ، واستهدف من جراء ذلك لغضب الكثيرين من المحافظين . ويمكن أن يقال إن الصبي القديس كان يُقبل على الشيء أو ينفر منه بمقدار نصيبه من اختياره . فنفر فى صباه من المسيحية لأن المبشرين بها كانوا يفرضون بشارتها فرضاً على الصغار والكبار ، ونفر من الألعاب الرياضية لأنها كانت « مادة إجبارية » فى المدرسة ، وكان إصغاؤه إلى أحاديث المسلمين عن دينهم أيسر وأسمح لأنهم كانوا لا يقحمونها على مستمعها .

أما تعليم الصبي فقد اتبع فيه أهله ما يتبع في تعليم الأطفال من أبناء أمثالهم . وكان أبوه في راجكوت حين بلغ موهانداس الصغير سن السابعة أو سن الدراسة الابتدائية ، فألحقه بمدرستها ، وانتظم في المدرسة الثانوية وهو في الثانية عشرة ، وقال عن نفسه أنه كان في طفولته فحج الذاكرة فلم يحفظ جدول الضرب إلا بشق الأنفس ، ولم يكن من التلاميذ اللامعين ، ولكنه كان يقبل على دروسه ولا يتوانى في استذكارها .

ولم يتعلم في المدرسة كثيراً من الدروس الدينية ، ولكنه كان يتلقاها في البيت والمعبود ويعي منها كل ما يليق إليه . ومات أبوه وهو في السابعة عشرة من عمره ، فسكفه أخوه الأكبر ، وكان أيضاً أخاً جديراً بقديس ... فإنه توسم النجاة في أخيه الصغير فنسى أثرته ورشح هذا الأخ الصغير للقيام على رئاسة الأسرة ، والترقى إلى مركز في الوزارات الإقليمية كمرکز أبيه ، ولا يهيوه لهذا المركز في عصره إلا تعليم كتعليم الجامعات في الهند والاقطار الاجنبية . فأشار على كبراء الأسرة بإعداد موهانداس لهذا التعليم .

وكان أمامه جامعتان : إحداهما جامعة بافنجار والأخرى جامعة بومباي ، وهى أكبر نفقة مما يطيق . فاختار كلية

ساملداس فى الجامعة الأولى . وقال إنه غرق فى علومها فنقل إلى بيته بعد نهاية السنة الأولى ، فنصح به برهمى صديق للأسرة بالسفر إلى البلاد الانجليزية لدرس القانون ، ومال هو إلى الطب . . . فذكره أخوه أن أباهما كان يمتت تشريح الجثث ، وأن وظيفة الطبيب لا ترشحه لولاية الوزارة ، فجنح إلى الدراسة القانونية إكراماً لذكرى أبيه .

وهنا قامت فى وجهه العقبة الكبرى ، لأن إيغال فى مثله فيما وراء البحار مستنكر فى شريعة الجينيين ، ولم يكن فى الهند كلها سيدة أشد تحرجاً من مخالفة عقيدتها من السيدة « بوتلباي » ، والدة غاندى . فضلاً عن تخرج أهله وسائر أقربائه . إلا أن غاندى الذى شب من صباه وديعاً مطواعاً قد شب كذلك قوى العزيمة لا يثنى عن رأى عقد النية عليه . فلم تنفع حيلة من حيل آله فى إقناعه . واستطاع كاهن الأسرة أن يجد للأمر مخرجاً يرضى الأم ويرضى فتاها . فقال لهم : إن النذر باجتناب المحرمات فى بلاد الغرب كافٍ إذا وثقت الأسرة من رعاية الفتى لنذره . وكانت الأم تعرف وليدها وتطمئن إلى صدقه فى وعده . فأقسم بين أيديهم لا يقاربن امرأة ولا يذوقن خمرأ ولا يأكلن لحماً أو طعاماً محرماً . . . ومع هذا لم يسلم الفتى من غضب المتشددى من كهان عشيرته ، فاستدعاه رئيسهم

في بومباي وهو بهم بركوب الباخرة إلى البلاد الانجليزية ،
ونبهه إلى الخطر على عقيدته من معاشرة الأوربيين في بيوتهم
لأنهم يشربون الخمر ، ويأكلون اللحوم ، ولا يتورعون عن
مقاربة النساء . فلم يحفل غاندى بتنبيهه ، وأصر على السفر
في حينه ، فأعلن الكاهن عقوقه وحظر على أبناء العشيرة أن
يذهبوا لتوديعه .

ويمتنح مهاتما المستقبل في هذه الرحلة بالفتنة الكبرى .
فالنزعة المادية طاغية ، والإباحة الخلقية فاشية ، وفلسفة
العصر في أواخر القرن التاسع عشر — بين الجيل الجديد
خاصة — أن اللوح حق له بل فريضة عليه . وقد أوشك غاندى
أن يطلب هذا الحق ويدين بهذه الفريضة ، فتدرب على الرقص
وتعلم العزف على بعض الآلات الموسيقية ، وصحب رفاقه إلى
السهرات وراض نفسه على أدب المغازلة . ثم أحس أنه يتكلف
ولا يخف بطبعه إلى استجابة هذه الفتنة . وشاءت المصادفة أن
تقترن فلسفة العصر بفلسفة أخرى في البيئات التي تعنيه ،
وتستحوذ على هواء . إذ كانت نهاية القرن التاسع عشر أيضاً
فترة الاستشراق ، والتوفر على دراسة أطوار الشرق القديم
والشرق الحديث : فكثرت بين علماء الغرب من يدرس اللغة
الهندية ، ومأثورات البرهمية والبوذية ، إما استجابة لدواعي

الاستعمار، أو استجابة لنوازع الروح وامتعضاً من غواية المادة
ولحاجة الإلحاد التي أفسدت على بعض العقول معنى الحياة .
وكانت هذه الشواغل القليلة أقرب إلى سليقة غاندى وأقن
منه بالتلبية والإصغاء ، فاتصل بالأندية الصوفية ، واطلع
فى اللغة الانجليزية على آداب قومه التى فاته أن يطلع عليها
فى اللغة السنسكريتية ، وعاد من طريق أوربة الحديثة إلى تاريخ
وطنه القديم .

ونال إجازة الحقوق بعد ثلاث سنوات ، فرجع إلى وطنه
وهو أطيب ما يكون قلباً ببقاء أمه ووفاء نذره ، ولكنه سمع
— أول ما سمع — بنعى تلك الأم التى ماتت فى غيبته ، وكتبوا
نبأ موتها عنه اشفافاً عليه من صدمته وسوء وقعه فى طمأنينة
نفسه وانتظام دراسته ، فاستفاد يقينه من هذه الصدمة المفاجئة
فائدة لم يطلبها ولم تقع فى حسابه ، لأن وفاءه لذكرها قد ضاعف
حفاظه على نذرها ، واجتمعت الأمومتان : أمومة الجسد ،
وأمومة الوطن ، فى أمومة واحدة ، وهى أمومة العقيدة
الروحية .

وزاول غاندى صناعة المحاماة زهاء سنتين فى وطنه ،
فكانت أول تجربة له فيها إخفاقاً تاماً لأنه حصر عن الكلام ،
ولم ينبجح فيها بعد تكرار التجربة ولا رضى عن عمله فى هذه



غاندى فى الجامعة

الصناعة . لأنه أخذ نفسه بالصدق في قبول دعاواه ، وأنف من اقتناص أصحاب القضايا بالحيلة ومعونة السماسرة . فما هو إلا أن دُعِيَ إلى أفريقية الجنوبية حتى بادر إلى قبول الدعوة ووصل إلى بريتوريا في سنة ١٨٩٣ وهو لا يعلم بما يضمه له الغيب في هذه الرحلة المفاجئة . فقد كانت مفرق الطريق في حياته وفي حياة بلاده على الإجمال .

سافر غاندى إلى أفريقية الجنوبية بدعوة من بعض الشركات الإسلامية التي كانت تتجر على شواطئ المحيط الهندي من أقصاه إلى أقصاه ، ولم يدع للحاماة ، بل لمساعدة المحامين الكبار من الانجليز . لأن المحامى الانجليزى هو الوكيل القضائى الذى يسمع له صوتٌ في محاكم أفريقية الجنوبية . ولسكنه ذهب في الواقع إلى تلك البلاد لأمر آخر مطوى عنه وعن موكله في عالم الغيب المجهول .

ذهب ليتلقى رسالته في حياته .

فتلقى رسالته ، وعرف قضيته ، ووضع قدمه على فاتحة الطريق التي انتهت به إلى زعامة الهند كلها ، بعد جهاد طويل دام نحو عشرين سنة ، ووضع هناك (سنة ١٩٠٨) دستور الهند في جهادها السياسى والأخلاقى فكان هو الدستور الذى قاد به الهند إلى استقلالها .

فى أفريقية الجنوبية ضرب غاندى وأهين لأنه اجترأ على
النزل فى الفنادق الأوربية والركوب فى السكك الحديدية مع
الأوربيين ، وكاد أن يحرق حياً فى النزل الذى أوى إليه بعد
العودة من زيارة قضاها فى بلاده ، لأن « البيض » قد حسبوا
أنه مهد السيل فى هذه الزيارة لإغراق أفريقية الجنوبية
بالعمال الملونين .

وهناك عرف القوانين التى كانت تفرض الحيف فرضاً
على الآسيويين والأفريقيين من الشعوب التى يسمونها بالشعوب
الملوثة ، ولا سيما طوائف الزراع والصناع .

وهناك ألغى أعماله كلها ليعيش عيشة الفاقة والضنك مع
أولئك البائسين ، ويشاطرهم الظلم الذى يخضعون له ويريد أن
ينقذهم منه . فأنشأ لهم مزرعة يعملون فيها كما يعمل ويعيشون
فيها عيشة الكفاف ، ليحطموا قوانين الحكومة الظالمة بالصبر
والمقاومة السلبية ، وسماها مزرعة تولستوى .

ونزل الفتى النظرى الروحاني فى معركته السياسية الأولى
إلى ميدان كله عمل ومادة . لأنه عالم السلاح والمال . ولكنه —
عند النظر إلى الوسائل والنتائج — قد كان فى ميدانه هذا عملياً
أنجح من العمليين ، وقد بُلى منه العمليون بخضم جديد لم
يعهدوا مثله قط فيما عهدوه .



غاندى فى أفريقيا الجنوبية

لقد عهدوا من معارضيتهم حملات الصحافة، ولم يهمل غاندى هذه الحملات لأنه تولى تحرير صحيفة سماها (الرأى الهندى) تصدر بالانجليزية وثلاث لغات هندية، ولكنها لم تكن قصاراه من الكفاح.

ولقد عهدوا من معارضيتهم حملات المنابر، ولم يهمل غاندى هذه الحملات، لأنه كان يخطب ويقنع، ويخاطب المتعلم والجاهل بما يفهمان. ولكنها كذلك لم تكن قصاراه من الكفاح.

إنما السلاح الجديد الذى جاءهم به هو سلاح لم يخافوه قط ولم يحسبوا يوما أنه يخيف لو أنهم عرفوه. وذلك هو سلاح المقاومة فى غير عنف، أو سلاح المقاومة السلبية كما عرفه ولاية الأمر فى حكومات الجنوب.

كان بعض الهنود ينقادون لغاندى فى حملات المقاومة السلبية، لأنهم يؤمنون مثله باجتناب العنف والتورع من إزهاق كل حياة.

لكن عمال الجنوب فيهم صينيون وأندونسيون، وفيهم هنود غير مؤمنين بالنحلة التى يؤمن بها الزعيم، وفيهم زنوج ووثنيون لا يعرفون من الأديان غير أديان الهمجية الأولى.

وكانوا مع ذلك يطيعونه جميعاً ويعملون بما أرادهم عليه .
لأنهم مطمئنون إلى إخلاصه الذي لا تشوبه شائبة ولا ترتقى
إليه مظنة .

هذا الإخلاص النزيه هو العنصر الذي جهله ولاية الأمر
واستخفوا بالمقاومة السلبية لجهلهم بفعله في هذه الحركة ، وفي
كل حركة سياسية .

فلما التقاهم به الفتى القديس وجدوا منه ما لم يحدوه من قبل
في خصومات الساسة ، ومشاغبات الدعاة .

ترك غاندى كل عمل يربح منه مال ، ووقف ماعنده من
المال على معونة المعوزين من المظلومين ، وسكن من حيث كانوا
يسكنون ، وأكل مما كانوا يأكلون ، ونزل بالسجن مرات
حيث ينزلون ، وهجر الحضارة وزينتها في الملابس والشارية ،
وعرض نفسه لكل مهانة يتعرض لها أضعف الضعفاء
وأفقر الفقراء .

فأغمضوا العيون ، وفتحوا البصائر ، واتبعوه .
وهكذا يصنع الاتباع مع كل متبوع لو وجدوه ،
ولكنهم لا يجدونه واحداً فرداً بين عشرات ومئات .
وأوصاهم إذا كفوا عن أعمالهم أن يكفوا عن إكراه
من يعمل على ترك عمله ، وأن يكفوا عن مقاومة الجند الذين

يسوقونهم سوقاً إلى المصانع والمزارع . لأن الجند لن يجرّكوا
أيدى العمال بالفؤس والآلات إذا شاموا أن يبنذوها
ولا يجرّكوها . أما إذا ضربهم الجند أو جرحوهم أو قتلوهم
فليصبروا وليصبروا ، وليطيلوا الصبر بغير سأم . . . إن
المعتدى خليق أن يسأم عدوانه قبل أن يسأموا الصبر على
ذلك العدوان . وقد جعلهم يتحدّون أوامر الحظر في الأماكن
الممنوعة فذهبوا إليها بالآلوف وحيروا الحكومات والمحاكم .
لأنهم لا يبالون السجن ولا تتسع السجون كلها لهذا العدد
الكثير من السجناء .

وكان يجمع من المال ما وسعه أن يجمع لتكوين العمال
المضربين ، ويمضى في تنظيم المزارع النموذجية ليستخرج لهم
منها بعض القوت الكفاف ، وهو أكثرهم في العمل وأقلهم
في نصيبه من الغذاء . وليست وسائله هذه بالوسائل التي تغنى
في انتظام معيشة يعتمد عليها الآلوف من العمال المضربين
إلى أجل طويل . ولكنها كافية لتعجيز المصانع والشركات
عن الانتظام ، أو تعجيزها عن مقاومة الاضراب . وذلك
هو المقصود .

وطال صبر الفتى القديس عشرين سنة ، ولم يطل صبر
المصانع والشركات ، ولا صبر الجند وولاة الأمور . فانتصر

وانكسروا، وأفلحت هذه المقاومة العجيبة في تحطيم سلاح القوة وتحطيم سلاح القانون. واضطرت حكومات الجنوب إلى نسخ كثير من القوانين التي تحجر على حرية العمال الملونين في الإقامة، أو تقتل عليهم في الأجور، أو تسومهم الطاعة لما لا يطاق من الغبن والاحجاف.

وكانما كان غاندى يحس في أيام أفريقية الجنوبية أنه قد نوى الصمود على جهاد لا تجدى فيه أنصاف القوى. فلا غنى له عن عدته الروحية الكاملة. أو لا عدة له على الاطلاق.

ففي أفريقية الجنوبية — وهو يناهز السادسة والثلاثين — نذر النسك والتبتل، أو نذر ما يسميه الهندو « بالبرهماشاريا » أى الإعراض عن الجسد والسلوك إلى الله، واتفق وزوجه على هذا النذر. فأصبح يدعوها بعد ذلك « با » أو يا أماء. وللروح — إن صح التعبير — عضلاتها كما للجسم عضلاته. وللصراع فى إبرام تلك العضلات أثرٌ كأثره فى إبرام هذه العضلات. فلما عاد غاندى إلى الهند بعد صراعه الطويل فى أفريقية الجنوبية، عاد بروح قد عرف كيف يلوى الحديد. عاد إلى الهند بعد نيف وعشرين سنة (١٩١٥) فإذا بسمعته تسيقه إلى كل بقعة من بقاعها: سمعة القديس بل سمعة

المخلص الموعود أو « الأفاتارا » Avatara الذى تنتظره الهند
أبدأ فى أزمة الضيق والأمل .

وكان أمل الهند فى الخلاص قد تجدد فى أوائل القرن
العشرين . لأن أبناءها الذين خيل إليهم زمناً أن الاستعباد ضربة
لازب عليهم وعلى أمثالهم من الآسيويين ، قد أفاقوا يوماً فإذا
بدولة آسيوية لا تبلغ عدتها خمس عدتهم قد سخرت الجيوش
والأساطيل على أحدث نظام ، فقهرت بها دولة من أكبر الدول
شهرة بالقوة والبأس بين الهنود والآسيويين على التعميم .
كانت غلبة اليابان على روسيا مبعث رجاء جديد فى جميع
الاقطار الآسيوية التى منيت ببلاء الاستعمار . وجاءت الحرب
العالمية الأولى بعد ذلك بأقل من عشر سنوات ، فكشفت
لأبناء الهند عن حاجة الدولة الأوربية الأولى — الدولة التى
تسيطر عليهم — إلى معونةٍ منهم لمقاومة خصومها أو لإنقاذ كيائها .
فعلخوا أن رضاهم شئ يؤبه له . أو شئ له ثمن يؤديه
القوى المسيطر عليهم ، وهو راض أو كاره .

وفى هذه الآونة عاد غاندى إلى بلاده . فلا جرم يحسبونه
قد هبط عليهم من السماء فى ساعة الضيق وساعة الرجاء .

ولم ينغمس غاندى بآدى الأمر فى لجنة السياسة الهندية
التي كانت تضطرب بالخصومات الحزبية والطائفية فى تلك

الآونة . لعله أخذ في ذلك بوصية الزعيم جوكهيل Gokhale الذى نصح له بمراقبة الحالة سنة كاملة ريثما يستجمع فكره على رأى يستخلصه من تجاربه ومشاهداته ، أو لعله أثر بطبعه إصلاح الأخلاق وتقويم المجتمع ومساعدة العمال والزراع على طريقته التى جرى عليها فى أفريقية الجنوبية . فسعى فى إنصاف العمال والزراع بالحسنى أو بالمقاومة السلبية ، وطفق يحول فى الريف ويتنقل على قدميه من قرية إلى قرية ليرفع من شأن الطبقة الفقيرة فى القرى بما استطاع . وبدأ منذ هذه الرحلات القصيرة فى مقاطعة الآلة الحديثة كلها أمكنه أن يقاطعها ، فلم يركب السيارة ، ولا القطار ، إلا حيث كان الركوب أُلزم للرحلة من المسير على الأقدام .

ولم يلبث أن طارت شهرته بالقداسة ، بل بالكرامة والخارقة المعجزة . فأخذ الناس من ثم يروون عنه الخوارق التى كان هو أول المكذبين لها ، ومن تلك الآونة تعود القديس أن يرى فى طريقه أمهات يلبسنه بأطفالهن الصغار طلباً للبركة والهداية ، وعجائزٌ ضريرات يعز عليهن أن يعبر طريقهن دون أن يعرج عليهن ، فيترصدن فى مجاز السيارة ليلبسنها ولو على خطر الموت ، إن فاتهن أن يسعدن بمصافحة القديس العابر فى الطريق . وتعاضمت هذه الشهرة فى الاستفاضة

والرسوخ، حتى جاء يوم من الأيام، بعد فترة من الزمن، آمن فيه عامة أهل الهند بأن الزلزال الذى أصاب ديهار، إنما كان عقوبة إلهية أرسلها الله على القوم لأنهم لم يستمعوا إلى عظات غاندى فى معاملة المنبوذين .

ولم يكن هذا إيمان العامة وحدهم، بل كان من راجات الهند وخاصتها من يرفع صورة غاندى فى قصره تيمناً بقداسته، وإن خرج بذلك على مقتضى التقية فى مسلك الأمراء والعظماء .

كانت هذه الشهرة المقدسة تتجمع حول غاندى يوم جذبته السياسة إليها جذباً على غير اختياره .

وكان أهل الهند يومئذ فى سياستهم الوطنية على مذاهب شتى: فريق يحنح إلى الثورة الدموية، وفريق يحنح إلى التعاون مع الإنجليز تمهيداً لبلوغ المزيد من الحقوق الدستورية، أو حقوق الحكومة الذاتية، وفريق يحنح إلى عدم التعاون استعجالاً لبلوغ هذه الغاية .

وليس فى هذه الأحزاب كلها حزب يحجم عن عمل من أعمال العنف، أو أعمال الغيلة والفتك، إذا أحرجته الضرورة إليه .

وكان على زعامتهم جميعاً فى أوائل القرن العشرين رجل

من أعظم نوابغ الهند في الزمن الحديث ، وهو « لو كانيا بال
جانجد بار طيلاق » .

ولقد كان طيلاق عالماً واسع المعرفة بالعلوم الرياضية
والثقافة الهندية والغربية ، قويم الخلق ، عالى النفس ، قوى
الشكيمة ، صعب المراس ، يقول فيه غاندى : إنه لو ظهر في
الزمن القديم لكان من مؤسسى الدول والعروش .

وأكبر الظن أنه لو عاش طيلاق ، وطال به العمر ، لوقعت
النوبة بينه وبين غاندى في برنامج السياسة الوطنية ، لأنهما
مزاجان متباينان . ولكنه قضى زمناً في السجن ثم قضى نجبه
في سنة ١٩٢٠ ، قبل أن تنعقد الزعامة الإجماعية لغاندى .
فضلا مدى الحياة على الوفاق .

* * *

وكأنما كانت الهند توز مكان الزعامة منها حتى وجدت
زعامتها التى تلائمها ، بعد هذا التمهيد من تطور غاندى وتطور
الحياة الشعبية في بلاده . فلما تولى غاندى زعامتها تولاهها زعامة
هندية وروحانية توائم الهند كل المواممة ، وتصلح لها حيث
لا تصلح الزعامات على منهاج الشعوب الأروبية .

ويبدو لنا أن صفات غاندى كلها قد رشحت هذه الزعامة
الروحانية ، حتى عيوبه الظاهرة . فإن القهارة والضالة

والانكسار نقص في الزعيم ، ولكنها في الداعية الروحاني
كالم أو توفيق حسن بين دعوته ومرآه . وقد اقترنت صفاته
جميعاً بالإخلاص الذي يعلو على الشبهات ، فكانت شهادة
له عند الخصوم كما كانت شهادة له عند الأصدقاء .

قلنا حين كتبنا عنه قبل نيف وعشرين سنة^(١) : « لم يظهر
بعد طيلاق الزعيم الهندى الذى مات فى الأعوام الأخيرة
زعيم كان أجل خطراً وأبعد صيتاً ، وأكثر أتباعاً من غاندى .
هذا الذى لقبه قومه بالنبي أو القديس . وقد اعتاد غاندى أن
يقول عن سلفه الراحل : أنه لو ظهر فى القرون الغابرة لأنشأ له
دولة وعرشاً ، وهو إنما قال فيه هذا القول لما عرفه من شدة
مراس طيلاق وقوة شكيمته وبعد أملة واعتداده بنفسه وبروز
شخصيته . ولا نظنه إلا كان شاعراً بالتفاوت بينه وبين صاحبه
فى هذه الخصال حين التفت إليها ونوّه بها أكثر من مرة ،
فإن الاختلاف فى الخلق من هذه الناحية هو أوضح مواضع
التباين بين الرجلين : صاحب العرش الذى تأخر به الزمن عن
عرشه ، والنبي الذى لم يتأخر به الزمن عن شرف النبوة ا
« والعهد بالأغلب الأعم من أبطال النهضات ، وقادة
الحركات الاجتماعية والسياسية أن يكونوا صغاب الطبائع ،

(١) ١٧ سبتمبر سنة ١٩٢٢ .

ضخام الأنانية ، أولى طمع وكبرياء ، وأنهم إلى أخلاق الغزاة
 الفاتحين أقرب منهم إلى أخلاق الأنبياء والنسك . ولو قدر
 للهند ألا يتولى الزعامة فيها أحدٌ من غير ذلك الطراز الذى نبغ
 منه طيلاق لما سمعنا باسم غاندى قط ، ولما كان له دور يؤبه له
 فى رواية الهند الحديثة ... نعم فليس غاندى بذلك الرجل الجبار
 بشخصيته ، الغلاب بحيلته ، ولا هو بالمزاول المداور ، القوى
 العارضة ، الخلاب الفصاحة ، ولا هو بالرجل الذى تروك
 هيئته ، وتستحوذ على إعجابك هيئته . لا بل خلاف ذلك يراه
 واصفوه من أتباعه وغير أتباعه : يقولون إنهم يبصرونه فى
 ضواه ، ونحافة جسمه ، ورخامة صوته ، ووداعة نظراته ،
 فكأنما يبصرون طفلاً صغيراً لا بطلا مسموعاً يقود الملايين
 وينهض لمناوأة أكبر دولة فى الأرض . وقد رأيت له عدة
 صور مطابقة لهذا الوصف ، وقرأت أخباره مع حكومة
 الهند ، وأساليبه الغربية فى مصاولتها ، فلم أشك فى أن رؤساء
 الحكومة هناك كانت تمر بهم لحظات لا يتماثلون فيها من
 الابتسام لهذا القدر الذى امتحنهم بكفاح هذا النبى السياسى ،
 فأصبحوا أمام حملاته التى كان يصبها عليهم صباً لا يدرون فى
 أى باب يسلكونها : أفى باب اللدد فى الخصومة ، أم فى
 باب عناد الطفولة الطاهرة البريئة ؟ ولا يكادون يعلمون هل

يُجد هذا الخصم العنيد ، أو هو يداعب حكومة الهند برهة ،
ثم هو تاركها وشأنها حين يلهمه هواه .
« إلى هذا الحد يتصور الفكر غاندى غير مطبوع على إثارة
البغضاء ، وهى خصلة أفادته أجل فائدة فى مهمته التى قيضته
الظروف لها ، وما كانت لتقيض لها رجلا هو أخلق بها منه ...
إنها كانت مهمةٌ صاحبها فى غنى عما يتصف به الزعماء الجبارة
من خلق غضوب يستنفرون به فى جانبهم وجانب خصومهم
أقصى ما عند الفريقين من نكرة الجنسية وعداوة العصية .
فهى مهمة جهاد سلمى ، سلاحها الرفق والصبر ، وأصلح الناس
لقيادتها ذلك الرجل المسالم بطبعه ، الوديع بحكم تكوينه ، الذى
يحذر أتباعه أشد الحذر من مقارفة العدوان والعنف ويقول
لهم : إذا كان لابد من العدوان فكونوا أنتم ضحاياه ولا تكونوا
أنتم جُنَّاته ، ويعظهم أن يعلموا بأنفسهم عن غضب السباع ،
وشراسة الحيوانات ، وهى كذلك مهمة تأليف بين عنصرين
فرقتهما تراث تاريخية كانت إلى عهد قريب تسيل الدماء ، وتذكى
ضرام البغضاء ، وتبعث الأنفة والاعتزاز بالأباء ، فكلما كان
القائم بها سهل العريكة ، بعيداً عن التكبرياء الشخصية ،
والخزونة الدينية ، كان ذلك أعون له على الإصلاح والتوفيق
ومسح التراث ولم الصفوف . وهى مع هذا وذاك مهمة قناعة

وإعراض عن لذات المدنية وغواياتها . ومن لها غير غاندى المتواضع المتقشف ، القانع باليسير من الغذاء والرخيص من الكساء ؟ لو أنه كان من رجال المطامع ، وعشاق الدنيا المفتونين بجاهها وزينتها ولذاتها وملاهيها — أترأه كان يخطر له أن يتخذ نفسه قدوة لاتباع دعوته ، فيغدو ويروح في ثياب من أرخص ما تنسج الهند ، أو يعيش على الفاكهة والأرز المسلوق ؟ . لقد صار للدين ومكارم الأخلاق كل ما عمله غاندى ونطق به ، حتى الدعوة إلى نبذ مظاهر المدنية الغربية قد وجد لها حجة من مكارم الأخلاق تحث عليها . فكان يقول لجماعته : « إننى لأستحى أن أخاصم رجلا يمنّ علىّ بنسج ملاسى ، .. وما هو بهازل ولا متكلف فيما يقول . »

« ويخيل إلىّ أن ضهور الشخصية أفاد غاندى أكثر مما أضر بنفوذه ، وأكسبه من الانتصار أكثر من أبعد عنه . »

إذ كانت الشخصية الضامرة هى التى ساعدته على بلوغ تلك المنزلة الدينية الرفيعة ، التى مهدت له سبيل التمكّن من أقوى جوانب النفس الهندية — وهو جانب الشعور الدينى — فإنه ما زال من سمات النساك^١ والروحانيين بساطة المظهر وخشوع النفس والجسم والبعد عن صور السطوة والوجاهة الدنيوية .

بذلك يتسم النساك^٢ الصادقون ، وكذلك يتراءى للناس النساك^٣

المتصنعون ، فصاحبنا غاندى فى بنيتة النحيلة ، وقده الصغير ،
أصدق عنوان للزهد والورع وأقرب صورة إلى الصلاح
والتقوى . ويمكن أن يقال على سبيل المجاز أن الطبيعة
تورعت فى تركيبه فلم تعد إلى البذخ والروعة ، فكان الرجل
متقشفاً فى الحياة ، وكانت الحياة متقشفة فيه .

و كثيرأ ما رأينا الكبراء ، من ذوى الصلف والنفوذ
يقبلون الطاعة لأمثال غاندى ممن لا سلطان لهم فى ذواتهم ،
ولكنهم مظهر من مظاهر سلطان الله ، الذى لا يتعالى على
سلطانه عظيم ولا حقير : يقبلون الطاعة له ، ولا يقبلونها لمن
يتقدم إليهم بمزايا من جنس مزاياهم . لأن الأول يترك لهم
الدنيا التى هى موضع تفاخرهم وتناحرهم ، ومثار التنافس
والحسد بينهم ، فيخرجونه من ميدان المنافسة ، ولا يرون فى
أنفسهم غضاضة من تقديمه عليهم جميعاً . والثانى يتقدم إليهم
بحظه من تلك المزايا لينافسوه أو ليستكبروه عن منافستهم ،
فيسلبون له عند العجز بمجبرين أو مختارين كمجبرين . وللضعيف
الهيئة فى بعض الأحيان أن يغبط بضعفه الظاهر ، ويحمد
عواقبه . لأن الناس لا يكلفونه ما يكلفون القوى ولا يقيسون
أعماله بمقياس ذوى القدرة والخطر . . يستكثرون منه القليل
إذ يستقلون من غيره الكثير ، ويعجبون منه بما ليس يعجبهم

من سواه . مثله فى ذلك كمثل الطفل الصغير يرفع اللبنة فتسير
بحديثه الأمثال ، وليس هذا ولا أضعافه بما يذكر للرجل الكبير .
» إن غاندى كما رأينا بما تقدم صاحب زعامة

خاصة بموقفه ومهمته ، أى أنه لم يُخلق ليكون زعيماً على كل
حال . ولا نقول ذلك بخساً لشبائل الرجل ولا تنقصاً من
قدرته ، فإنه فضلاً عن فصاحته وسهولة اجتذابه للسامعين
حاصل ، كما نعتقد ، على صفتين من ألزم صفات الزعامة على
الناس ، بل هما ألزم صفاتها قاطبة ولولاها لما أفلح داع قط ،
ولا استحق السكرامة زعيم ، وهاتان الصفتان هما : الإخلاص
والإيمان .

» فإخلاص غاندى فوق كل شبهة ، وإيمان غاندى
قد صَفَّته المحن ومحضه النسك ، وتنزهه عن الشكوك الهادمة
والوساوس القائمة . . عرف له إخلاصه وإيمانه أبناء قومه
فعظموه وأكرموه ورفعوه بينهم مكاناً لا مطمع فوقه لطامع .
وما أدراك ما مكانه عندهم ؟ إنهم يلقبونه : النبى أو الروح
العظيم (ماه - آتما) وهى منزلة ليس بعدها ولا أرفع منها فى
دين البراهمة إلا منزلة واحدة ... هى الروح الكلية (بارام - آتما)
وهى روح برهما : روح الله .

ولم ينفرد بتنزيه غاندى عن التهم أبناء وطنه من البراهمة

والمسلمين . فقد شهد بنزاهته كذلك كل من رآه من
الأوربيين ، حتى أنصار الاستعمار من الإنجليز ، بل شهد له
قاضيه الذى أمضى الحكم بالسجن عليه ، ورأينا بين كتاب
الإنجليز من يقول فى مجلة « نيشن » غير متلعم ولا محترس : إنه
ليس من التجديف أن يقارن بين غاندى والمسيح ، وهى كلمة
كبيرة من إنجليزى مسيحى فى العصر الحديث . ولم يستطع
السير فالتين شيروول أن يلقي عليه الغبار الأسود الذى
لا يعنيه إلقاؤه على مخلوق يناهض الاستعمار البريطانى ، فقال :
إنه فى الحركة الهندية « بلا فأس يشحذها لنفسه » . . . وهذه
الفأس عندهم هى كناية عن المصلحة الشخصية والأغراض
المريبة . وكَم من فأس خلقها شيروول وشحذها على حسابه
لأناس لا يحملون الفؤوس ! .

خلصت الزعامة لغاندى على هذا النحو الذى يعد أعجب
ما حدث من نوعه فى تاريخ الزعامات السياسية . لأنك
تستطيع أن تقول : إنه بلغ الزعامة بغير مجهود ، كما تستطيع
أن تقول : إنه بلغ الزعامة بأكبر مجهود يدخل فى طاقة إنسان .
فغاندى لم يزاحم أحداً على زعامة وطنه ، ولم يزاحمه أحد
عليها . فهى زعامة من شئ بغير مجهود .

ولكن غاندى قد استحق الزعامة باعتراف موافقيه في
 الخطة ومخالفيه ، واعتراف المستعمرين أنفسهم ، لأنه انتصر
 في أصعب المعارك على المجاهدين : وهى معركة الشهوات
 والمطامع ، وراض نفسه على ترك كل ما يصعب تركه واحتمال
 كل ما يصعب احتماله ، فدانت له النفوس سهلة القياد بعد
 أن دانت له نفسه حيث لاتدين النفوس ، وكانت أكبر
 شهادة له بين أبناء وطنه من أكبرهم وأولاهم أن ينفس عليه ،
 وهو الشاعور تاجور ، فقال عنه من كلام كثير : « إنه أعظم
 شخصية إنسانية ، رآها » .

ولما خلاصت له زعامة وطنه على هذا النحو مضى بها على
 سنته التى لا يحد عنها ، وهى سنة الحب الشامل والاحتراس
 من كل نزعة من نزعات الكراهية والعداء ، وإن أصابه شر
 ما يصاب به المرء من أذى الكراهية والعداء .

ولا تخالجن أحداً ذرة من الشك فى صدق غاندى حين
 يقول إنه يحارب الاستعمار ولا يكره المستعمرين . فهكذا كان
 فى كل صغيرة وكبيرة من حركاته ودعواته منذ بدأ جهاده
 فى أفريقية الجنوبية : كان يحارب الأوربيين والإنجليز
 ولا يعاديهم ، وكان يرى لهم عليه حقوق الإنسانية كما يراها
 لأبناء وطنه وللمظلومين من أبناء الشعوب الملونة . فجند فرقة



غاندى الزعيم

للصليب الأحمر في أيام حرب البوير ، وأنشأ مستشفى في جوهانسبرج لعلاج جميع المرضى بالطاعون حين فشا في جوانبها ، وهادن الحكومة في أوقات الحرج حتى جلب على نفسه سوء الظنة من أبناء وطنه أنفسهم ، فضر به (في سنة ١٩٠٧) ، ضرباً مبرحاً ليقتلوه ، ولم يتركوه إلا وهم يحسبون أنه قد مات .

وهكذا كان يصنع في خصومة الحكومة الهندية على اختلاف موقفه منها . فكان يدعو أحياناً إلى التعاون وأحياناً إلى المقاطعة ، واشتد في حركة المقاطعة (سنة ١٩٢٠) حتى أمر أتباعه بالاستقالة من وظائف الحكومة ورد الرتب والألقاب الإنجليزية والإضراب عن أداء الضرائب ، وعن المساهمة في القروض الحكومية ، وحرّم عليهم كل سلعة أجنبية ، ونقض جميع القوانين التي تحتكر بها الحكومة سلعة من السلع ، وتجاوز هذه القوانين إلى غيرها إذا وجب تحدى جميع القوانين لشل حركة الحكومة .

ولكنه كان في كل هذه المواقف ، معاوناً أو مقاطعاً ، يوصى ويكرر الوصية باجتناب العنف واحتماله عن رضى وطواعية ، واستخدام السلاح الوحيد الذى كان يرى أنه سلاح النصر في حالتي النجاح والإخفاق ، وهو سلاح المحبة

والمسألة . وكان يقول لاتباعه : حاربوهم بالسلاح الذي يخافونه لا بالسلاح الذي تخافونه أنتم . وبينوا لهم أن سلاحهم لا يخيفكم فتفلّوا ذلك السلاح في أيديهم . أما السلاح الذي كان غاندى يرى أنه يخيف المستعمرين فهو سلاح المحبة . لأنه سلاح جديد لم يتعودوه .

ومن اعتزازه بهذا السلاح أنه وصفه لهتلر . . نعم وصفه لهتلر كما يصنع أصحاب مصانع الأسلحة إذ يصفون مخترعاتهم الماغية لمن يحتاجون إليها . فكتب إلى هتلر قبيل الحرب العالمية الثانية يقول له بعد مقدمة يذكر فيها تردده قبل الكتابة إليه : . . . وظاهرٌ جداً أنك اليوم الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يمنع حرباً قد تهبط ببنى الإنسان إلى درك الهمجية . فهل من اللازم أن تبذل هذا الثمن لأى غرض من الأغراض بالغاً ما بلغ من الرجاحة فى نظرك ؟ أترك تصنى إلى توسل رجل تعتمد عن روية طويلة أن يتجنب وسائل القتال فلم يفته نصيب غير قليل من النجاح ؟ غفرانك على أية حال إن كنت قد اخطأت فى الكتابة إليك . . . ،

وهذا الخطاب يدل على أساليبه السياسية ، كما يدل على اعتزازه بسلاحه . فإن غاندى صرح الإنجليز بوجوب الجلاء عن الهند بعد نشوب الحرب العالمية الثانية ، وقال إنه

لا ينبغي بذلك إعناتهم في وقت المحنة ، وإنما يعجل بالطلب لأنه لا يرى ما يوجب تأخير الجلاء إلى ما بعد وقوف القتال في الميادين الأوربية أو الآسيوية ، ولكنه مع هذا لم ينظر إلى الحرب العالمية كأنها فرصة مواتية يترقبها لمصارحة الإنجليز بطلب الجلاء ، وحاول بما في ميسوره أن يثني عنها من يخشى منهم الإقدام عليها .

وتهتاج الخواطر ما تهتاج ، وتنبيغ الدماء ما تنبيغ ، ويفلت زمام العقول والأعصاب من قبضة العلية والدهماء على السواء . وغاندى على عهده في صدق الخصومة سرّاً وعلانية ، وفي صدق الإيمان بسلاحه وصدق النفور من كل سلاح غيره . ولم يبح قط لنفسه أو لأحد من أعوانه أن ينسى المحبة في حركة واحدة يقابلون بها المعتدين عليهم ، أو ينسى الصدق في كلمة واحدة يذكرونها عنهم . وأدهش البريطانيين بشدة حرصه على صدق الكلمة الواحدة في حادث — على الخصوص — كان أنخلق الحوادث أن يطلق الألسنة باللاتهام في غير تمحيص وإحجام ، وهو حادث امرتزار المشهور .

في الثالث عشر من شهر أبريل سنة ١٩١٩ ، وقعت أكبر وصمة في تاريخ الاستعمار البريطانى للهند ، وهى مذبة امرتزار وكانت هذه المذبة أضخم خطأ تجمعت فيه أخطاء الإدارة

والسلطة العسكرية ، في حساب السياسة ، وحساب المبادئ الإنسانية ، وحساب العرف والنظام .

كانت الهند كلها تشتعل بالسخط والغضب ، وكان الهندوسيون والمسلمون على السواء على أشد النقمة من الحكومة البريطانية ، لأنها أخلفت وعودها لهم ، وناصبت الخلافة الإسلامية عداء صريحاً في تأييدها هجوم اليونان على أرض الأناضول ، بعد أن حارب المسلمون في صفوفها معتمدين على وعد قاطع منها ألا تمس الخلافة الإسلامية بعد هزيمة الجيوش التركية .

وخرج غاندى في رحلة سلمية يهدى أبناء وطنه ويجمع الهندوسيين والمسلمين على خطته في اجتناب العنف وإهراق الدماء . فقبضت عليه الحكومة وأعادته إلى بومباي . وسرى الخبر في أرجاء الهند ف وقعت بعض حوادث العدوان هناك وكانت « امرتزار » من المدن التي وقعت فيها هذه الحوادث ونهب فيها بعض الدور والدكاكين .

فوصل الجنرال « سير ميشل داير » إلى المدينة يسبقه إعلان^{٦٥} لم يعلم به أحد — بمنع الاجتماعات ، وكان اليوم الثالث عشر من شهر ابريل موعد اجتماع ديني في ميدان محصور يسمى « جلنوالا باغ » فاعتقد الجنرال أن المجتمعين يتحدونه

ويعصون أمره . فأمرهم مرة أخرى بالتفرق ، فلم يستطيعوا أن يتفرقوا على عجل لأن السكان محصور ، فأطلق عليهم مدافعه الرشاشة حتى نفدت ذخيرته . وقتل في هذا اليوم عدد عظيم من المجتمعين والمجتمعات يقدرهم بعضهم بأربعمائة ، ويبلغ به بعضهم أربعة أضعاف هذا العدد . ولم يكتف الجنرال بإهراق الدماء حتى أضاف إليه إذلال النفوس . فأمر ألا يعبر الهنود طرقاتاً معينة إلا زحفاً على الركب ، لأنها الطرق التي أهين فيها بعض السيدات خلال الحوادث التي وقعت قبل وصوله إلى المدينة .

إن الجريمة أفضح من أن يلتزم فيها أقل حيطة في الاتهام . ولكن غاندى أبى — مع فظاعة الجريمة التي تغرى بكل تهمة — أن يثبت في محضر التحقيق حرفاً واحداً لا تقوم البينة القاطعة على ثبوته ، فلما اجتمعت لجنة التحقيق الوطنية لكتابة تقريرها عن الحادث ، ووردت فيه بعض الأقوال التي يؤخذ منها أن الجنرال « داير »، تعتمد أن يستدرج المجتمعين إلى الأماكن المغلقة التي يناهض فيها الرصاص ، أصر على حذف هذه الأقوال لأنها في رأيه « لا تعقل » ، ولم يقر عليها من الأدلة ما ينشئ الشبهة عنها . ثم أصر في مؤتمر « امرتزار » الذي عقد عند نهاية السنة على استصدار قرار من المؤتمر كله باستنكار أعمال

العنف التي وقعت من جمهرة الهنود في البنجاب والكوچرات ،
فصدر القرار على الرغم من معارضة كثير من أقوى الأعضاء
لاقتراح غاندى ، وعلى رأسهم « داس » ومؤيدوه .
ويشبه هذا الحادث في صدق الكلمة وأمانة العقيدة
إعلانه وقف العصيان المدنى على تبعته وحده بعد الهياج
الذى انفجر فى المدن الهندية لمناسبة زيارة ولى العهد الإنجليزى
لمدينة بومباى (١٩٢١) .

فى ذلك الوقت كان رؤساء المؤتمر جميعاً معتقلين أو
مسجونين ، وكان الطلقاء منهم على خطر من الاعتقال أو
السجن . وكان غاندى يتولى رئاسة صحيفة « الهند الفتاة » التى
كانت بمثابة صحيفة المؤتمر الرسمية . فقرر المؤتمر إسناد السلطة
التنفيذية إليه فى خلال هذه المحنة ، واتفق الرأى على إعلان
العصيان المدنى فحدث على أثر إعلانه أن الدهماء ثاروا فى
« شورى شورا » وقتلوا فى هذه الفتنة اثنين وعشرين من
رجال الشرطة . فلم ينتظر غاندى حتى يجمع المؤتمر ويعرض
عليه إعادة النظر فى قراره ، بل أعلن باسمه وحده وقف حركة
العصيان المدنى إلى أن يتهبأ سواد الشعب لفهم هذه الحركة
وتنفيذها على وجهها المقصود : وهو المسالمة واجتناب كل
عمل فيه عدوان على أحد من الحاكمين أو الحكوميين . واشتدت

الثورة عليه في المؤتمر من جراء هذا الإعلان الجريء ،
واقترح أحد الأعضاء توجيه اللوم إليه ، وناصره أعضاء
آخرون . ولكنه عند أخذ الرأي لم يظفر بكثرة
الأصوات .

ومن الجائز أن هذه المواقف المستغربة التي كان المهاتما ،
يقفها من قومه في أخرج الأوقات وأشدّها جماحا بالنفوس ،
كانت تمتحن قداسته في نظرهم أعسر امتحان تمر به زعامة
سياسية ، ولكنه كان هو الناجح أبداً في كل امتحان من هذا
القبيل ، وكان أبناء قومه يخرجون من كل محنة وقد انقلبت في
نظرهم إلى امتحان عسير لهم ، يمتحنهم في قدرتهم على مجازاة القداسة
وحاجتهم إلى رياضة النفس على طاعتها والائتمار بأمرها .
فيخرج غاندي من كل محنة من هذه المحن وهو أعلى مكاناً
وأقدر على قيادة الخاصة والعامة في أوقات الفتنة والضيق .

أما الانجليز فقد كانت مخالفة غاندي لهم ومخالفته لنزعات
قومه تواجههم معاً بظاهرة إنسانية عجبية لا نظير لها في
حضارتهم الغربية : ظاهرة يعرفون منها ما يعرفون ويجهلون
منها ما يجهلون ، ويحيط بها كل ما يحيط بالمجهول من الهيبة
والاستغراب ولكنه استغراب لم يخل قط من عطف وتقدير .
أكبره قومه ، وأكبره خصومه ، وكانت القوة الروحانية

التي استحققت هذا الإكبار هي الجيش الزاخر الذي يحارب
به في ميدانه ، ويختار ميدانه حيث شاء كما يشاء . لأنه لا ينهزم
في ميدان اختاره ولا يؤمن بأنه ينهزم ، ولا يبالي الهزيمة إذا
جاءت بوادرها بغير ما يروم .

* * *

كان الانجليز يحارون في هذه القوة كيف يلقونها وكيف
يعالجونها ، إلا شيئاً واحداً لا يحارون فيه ، ولا يحار فيه غيرهم
وهو جدارتها بكل احترام .

وتجلى هذا الاحترام في تلك المحاكمة الفريدة التي لم يشهد
لها مثيل في تاريخ القضاء كله ، وهي محاكمة « المهاتما » المشهورة
التي بدأت في الثامن عشر من شهر مارس سنة ١٩٢٢ أمام
محكمة أحمد آباد .

دخل المتهم الهزيل إلى ساحة المحكمة ، فوقفت المحكمة
إجلالاً له حتى استوى في مكانه .

وسئل عن التهمة - وهي تعريض الحكومة للكرهية
وتصعيب مهمتها في حكم الهند - فأجاب بأنه « مذنب » على
حسب القانون القائم . ثم وجه خطابه إلى القاضي « برومفيلد »
قائلاً : « إنك لا معدى لك في مقامك هذا من أحد أمرين :
إما أن تعتزل منصبك وتنفض يدك من السوء . وإما أن

تصدر حكمك بأقصى العقوبة إذا اعتقدت أن هذا النظام وهذا القانون الذى تطبقه فيهما الخير لأبناء هذه البلاد ، وأن عمل من ثم ضرر بمصالحهم .

ففى القاضى فى تلخيص التهمة . وكان فى تلخيصه كأنما يستعطف المتهم ويعتذر للحكومة لأنها اضطرت إلى تقييد حريته وكفه عن الاسترسال فى دعوة تحول بين الحكومة — الحكومة — وبين القيام بعمل من الأعمال التى تتولاها الحكومات . ثم وجه الخطاب إلى « المتهم » فقال : « إنك رجل يرى فىك الناس ، حتى مخالفيك ، إنساناً من ذوى المثل العالية والحياة النبيلة بل المقدسة » ثم نطق بالحكم فإذا هو يقضى عليه بالحبس البسيط ست سنوات . . وعقب على ذلك قائلاً : « إنه لن يكون أحد أسعد منه إذا استخدمت الحكومة حقها فقصرت هذه المدة أو أطلقت سبيله . . وعاد يسأل غاندى مهوَّناً لوقع هذا الحكم : ألم يحكم بمثله من قبل على طيلاق ١٩٠٠ . .

فكان مسلك القاضى فى القضية كلها مسلك من ينفذ الإدانة عن نفسه ، ويحاول أن يبرىء نفسه أمام العالم وأمام التاريخ من اتهام يخشى أن يقترب باسمه ، ولم يكن مسلك رجل يعاقب ويدين .

لم يكن غاندى « يمثل » ، فى إدانة نفسه ، ولم يكن القاضى « يمثل » ، فى تبرئة نفسه ، ولكنه كان يعتذر للقانون ويعتذر للسياسة فى حضرة قوة أكبر من القانون وأكبر من السياسة ، وهى القوة التى لا تجهل ولا يجهل لها أثر ، وكان أثرها المحقق أنها قد غلبت قانون الحاكم الأجنبى كما غلبت جيوشه وأساطيله ، وانتصرت بالسلاح الذى اختاره صاحبها ، وقال غير مرة أنه يحارب به لأن السلاح الماضى هو السلاح الذى يخافه الخصم لا السلاح الذى يخافه حاملوه .

ولقد أسف أناس من فضلاء الهند ومن عباقرتها النابهين وفى طليعتهم تاجور ، لأن غاندى سخر هذه القوة الروحانية المثلث فى خدمة السياسة . ولكن الذين عاشوا منهم بعده ، أو عاشوا إلى أخريات أيامه ، قد علموا أنه كان على صواب فيما صنع ، لأنه لم يفسد روحانيته ، بل نقل الروحانية إلى السياسة فأصلحها ، وجعلها فى نظر الأنصار والخصوم حرفة جديرة بقديسين .

لقد كانت هذه القوة الخارقة عنصراً فعالاً فى تاريخ أربعائة مليون من الأدميين ، وستظل عنصراً فعالاً فى تاريخ البشر جميعاً إلى زمن بعيد .

بم تقيسها إذا أردنا أن نزرع آمادها ونذكر أغوارها
وآفاقها؟.

أبحاية البقرة أو عبادتها؟ أبالصيام إلى أجل أو بالصيام
حتى الموت؟ أبالتنكشف والزهادة؟ أباجنب مطلق لكل
ضرب من ضروب العنف بغير قيد ولا شرط، ومع جميع
الناس، وفي جميع الأحوال؟

كلا. إنما هذه كلها صور وعناوين، وإنما القوة الصحيحة
من وراء هذه الصور والعناوين، وكل قوة صحيحة في نفس
الإنسان فهي القوة التي تعدو به طوره المحدود، وتخرجه من
أثرته الضيقة وتقيمه إنساناً يعلو على صغائر الساعة، ويدين
بالإنسانية الشاملة في عمرها الخالد المديد. وما العبرة في القياس
الأصيل إلا بهذه القوة الصحيحة، دون ما تتسمى به من الصور
والعناوين.

وليس هذا القياس بدءاً في القوى الروحانية وحدها.
فقد نجد له مثيلاً في القوة الجسدية وفي هذه الملبوسات المادية
التي نحسبها مرجع الصحة والصدق والفهم العملي الذي لا تشوبه
المغالطة والخذاع.

فهل من « مادية جسدية » أدخل في باب المادة والتجسد
من غذاء الأبدان؟

إنه المادة من صميم المادة في عرف الواقعيين والمثاليين ،
والخياليين . ومع هذا نحن نحسه على نحو ، وننتفع به في
أجسادنا على نحو آخر .

نحن ننتفع بالغذاء لأنه فخم وجير وحديد وملح وفسفور
إلى غير ذلك من المعادن المحدودة إلى تدخل في بنية الأحياء .
فن الذى يأكل طعامه لأنه فخم أو جير أو حديد أو ملح أو
فسفور ؟ إن الطبيعة لم تخدع الناس حين جعلتهم يأكلون
ويشربون ، لأنهم يطلبون طعاماً حلواً ، أو طعاماً حامضاً ، أو
طعاماً مراً ، أو طعاماً يجلب الشهية ويلذ في المذاق ؟

إن الطبيعة لم تخدعهم بهذه العناوين التى اتخذتها أذواقهم
ولم تدخلها في تحليل المعامل ، ولا أدخلتها في مناقشة الأفكار ،
ولا هى مثلت لهم الحاجة البدنية بمصطلحات الكيمياء ،
ولكنها ترجمت لهم نفع الغذاء بهذه الطعوم التى تسيغها
الأذواق ، ولولا هذه الطعوم لما كان الغذاء .

وهى لم تخدعهم كذلك ، لأنها ساقتهم إلى حفظ نوعهم
بلذة جسدية أو بعاطفة من عواطف الشوق والحنان ، ولكنها
تتكلم أكثر من لغة واحدة حين تعبر عن حقائقها ، وكلها
بعد ذلك صدق حاصل على اختلاف العبارات .

فالروحانيون لا يضللون العقول ، والماديون لا يعرفون

معنى التضليل إذا كانوا يعبرون عن حقائق الحياة بلغة واحدة لا تقبل التنويع . فادتهم التي يجمعون فيها الصدق كله أشد تضليلاً للأحياء من كل دعوة روحانية ، إذا جعلنا اختلاف التعبير عن قوى الحياة من قبيل التضليل ، أو جعلنا اختلاف الشيء في الحس ، وفي وظائف البنية الحية ، آية على التناقض والبطلان .

هكذا تعبر الطبيعة عن غذاء الأبدان .

فلماذا نكذبها إذا هي عبرت بمثل هذا التعبير عن غذاء الأرواح ؟

إننا إذن لا نصدق مع الروحانيين ولا نصدق مع الماديين !
ولك أن تَكُونْ مادياً ، أو واقعياً ، أو حسياً ، في مناقشة ~~الآراء التي~~ غاندى والآراء التي بشر بها كاشان . ولكنك لن تكون مادياً ، ولا واقعياً ولا حسياً ، إذا أنكرت الواقع المحسوس .

والواقع المحسوس أن غاندى قد حفز روحانية الهند إلى عمل من أعظم أعمالها في تاريخها الطويل ، وأنه قد أتى بخارقة لم يأت نظراؤه بأعظم منها في جميع أطوار التاريخ .

عقيدته

يسبق إلى الظن — حين يذكر غاندى زعيم الهند — أنه يدين بالبرهمية : ديانة الهند الكبرى ، وأقدم عقائدها المعروفة .

ولكن الحقيقة أنه لا يدين بالبرهمية ولا بالبوذية ، التي هي أشهر المذاهب في خارج الهند بعد الديانة البرهمية . وإنما يدين — كما أسلفنا في الكلام على نشأته — بنحلة خاصة من نحل تلك الديانة القديمة ، وهي النحلة الجينية ، ولا يزيد عدد أتباعها في الهند اليوم على مليون ونصف مليون . ولا غنى في الكلام على عبقرية غاندى عن تقرير هذه الحقيقة الهامة ، لأنها توضح لنا تلك العبقرية من جانبين خطيرين : أحدهما أن الجينية — مع كونها نحلة دينية — هي في الواقع ثورة قومية على سلطان الغزاة الآريين ، بل هي أقدم ثورة قومية روحية في الهند على ذلك السلطان . لأنها أنكرت نظام الطبقات الذى سجل به الغزاة سيادتهم على الشعوب الهندية الأصيلة ، وأخذت في كتابة أسفارها المقدسة باللغة الشعبية المعروفة بالبراكريتية ، وهي مشتقة

من السنسكريتية القديمة لغة الغزاة الآريين ، مع تحريف وزيادة طرأت عليها من اختلاط الغرباء بأبناء البلاد الأصلاء .
فالمهاتما إذن قد ورث دواعى الثورة على — السيادة
الغالبية — من عقيدة الجينية ، ولم يكن فى حاجة إلى
جهد كبير ليتجه بفكره وطبعه إلى مقاومة الغزاة الجدد
فى القرن العشرين . . .

وقد ورث كذلك دواعى الإصلاح الاجتماعى من تلك
العقيدة القومية الروحية ، فلم يكن فى حاجة إلى مشقة كبرى
للتفكير فى إنصاف الضعفاء ، والتسوية بين الطبقات .
أما الجانب الآخر الذى توضحه لنا تلك العقيدة من عبقرية
غاندى ، فهو مصدر آدابه الروحية التى كثر الكلام عليها بين
الكتاب من الغربيين .

فقد سمعنا كثيراً أنه مدين بآداب السلام والمحبة لهذا
الكتاب أو ذاك من الحكماء الأوربيين ، وذكروا اسم
« تلتستوى » الحكيم الروسى على الخصوص ، لأنه كان أوفر
الأعلام العالمين نصيباً من أحاديث الناس وتعليقاتهم ، حين
نشأ غاندى وأخذ فى الاطلاع على الثقافة الأجنبية ، ولأن
غاندى نفسه قد خاطبه مرة خطاب التليذ للأستاذ ، وأشار
إليه غير مرة فى أحاديثه ومقالاته ، وجاءت دعوته بعد دعوة

تلتوى فى البلاد الروسية ، على مبادئ السلام والمحبة
واجتناب العنف والانتقام .

إلا أن الواقع الذى لامراء فيه أن مبادئ غاندى جميعاً
مستمدة من العقيدة الجينية ، وأنه لم يدع إلى خطة واحدة
فى الإصلاح الاجتماعى أو السياسى لا ترد بحملتها وتفصيلها
إلى تلك العقيدة . وكل ما استحدثه فيها من الخطط العصرية
فهو من تصرفه ووحى عبقريته ، ونزعة مزاجه وتفكيره ،
على حسب الحوادث والمناسبات .

فعبقرية غاندى لا تُفهم على حقيقتها بمعزل عن العقيدة
الجينية ، وهى أحوج النحل الهندية فى خارج الهند إلى شيء
من البيان والتوضيح .

تنسب هذه العقيدة إلى «الجينا» بمعنى الظافر أو الغلاب ،
ويراد بالغلبة هنا غلبة الإنسان على شهواته وغوايات طبعه ،
ويلقب «بالجينا» عندهم كل إمام من أئمة الهداية يظهر فى أوانه
المقدور ، وهم يظهرون على التوالى فى كل دورة من دورات
الدهر الطويلة ، وهى عندهم دورات أبدية بغير نهاية ولا بداية ،
تعود كلما انتهت دوايك من أزل الآزال إلى الأبد الأبد .
ويظهر فى كل دورة من الدورات أربعة وعشرون إماماً
متلاحقين على حسب الحاجة التى تدعو إليهم ، ثم يفارقون

عالم الجسد إلى غير عودة ، لأنهم يخلصون من الجسد أرواحاً مصفاة ، لا تبقى فيها بقية من شوائب المسادة تردهم إلى حياة التجسيد .

والإمام الذى يدين به غاندى هو آخر هؤلاء الأئمة فى هذه الدورة الدهرية ، ظهر فى القرن السادس قبل الميلاد ، وكانت دعوته معاصرة للدعوة البوذية ، ولعلها قد سبقتها بجيل أو نحو جيل ... أما إذا أخذنا بكلام أتباعها فى أقدم من ذلك بعدة أجيال ، بل بعدة دورات من آماذ الأزل القديم .

ويسمى هذا الإمام « ترثنكارا ماهافيرا Tirthankara Mahavira » وهو اسم مركب من عدة أسماء ، معناها : البطل العظيم صانع المعبر أو القنطرة ، كناية عن العبور باتباعه فى طريق النجاة .

فكلمة « ترثا » معناها المعبر أو القنطرة ، وكلمة « كارا » معناها الذى يصنع ، وكلمة « فيرا » معناها البطل أو الظافر ، وكلمة « ماها » معناها العظيم ، ومنها كلمة « المهاتما » التى لقب بها غاندى بمعنى الروح العظيم .

والظفر الأعظم الذى يستحق به الإمام لقب الغلاب أو « الجينا » من كلمة « جى » — أى النصر — هو الظفر على

الشهوات السكبرى ، وهى الغضب والكبرياء والجشع والخداع ، ومن الشهوات التى يتغلب عليها ما هو دون ذلك فى القوة وصعوبة المراس ، وهى الهم والخوف والاشمئزاز ولذة الجنس ، وما إليها من اللذات .

وخلاصة الدين عندهم اجتناب الأضرار بجميع الأحياء . ويلخصون هذه الخلاصة فى كلمة واحدة هى كلمة « أهمس » .. وهى كلمة مركبة من كلمتين : همزة النفي عندهم ، وهمسا : بمعنى الإضرار .

وهم لأجل ذلك نباتيون لا يبيحون أكل الحيوان على اختلافه ، فيحرمون لحوم جميع الأحياء من الأنعام والماشية والسماك والطير ، ولا يأكلون البيض والشهد ، ويستثنون اللبن لأنه مما يرضعه الإنسان فى مهده ، فلا تحرم عليه « الألبان » ، لأن الرضاعة مقترنة بالرحمة والحنان .

ومن عجائب اعتقادهم أنهم آمنوا بوجود ألوف الألوف من الجسيمات الحية التى لاتراها العين قبل أن يعرفها العلم الحديث . فحرموا الخمرة والجعة لأن الاختمار يقضى على تلك الأحياء ، وحرم غلاتهم كل نبات ينمو تحت الأرض — كالبطاطس والفجل والجزر — لاعتقادهم أنها تحمل من باطن الأرض ألوفاً لاعداد لها من تلك الأحياء الصغار .

ولست مسألة الأوامر والنواهي عندهم مسألة تحليل
وتحريم، كما هو شأنها في جميع الديانات. ولكنهم يعملون الشيء
أو يجتنبونه لأن العمل به أو اجتنابه يناسبان طبيعة الروح.
فالسمو إلى عالم الروح هو غاية الغايات من ترقى الإنسان
في معارج الحياة.

وعلاوة الاقتراب من عالم الروح أن المرء لا يقتل ولا
يغضب ولا يسيء إلى أحد من الأحياء، لأن شواغل الجسد
هى التى تسول له العدوان وتثير فيه البغضاء، فمن غلبته هذه
الشواغل بقي فى عالم الجسد وعاد إليه، ومن غلبها فآية الغلبة
التي يسموها إلى عالم الروح هى « المحبة » والسلام. إذ كانت
الروح لا تشتمل فى طبيعتها على داعية من دواعى النفور
والنزاع، وإنما تأتى هذه الدواعى جميعاً من شواغل المادة، أو
من « الكارما » كما يسمون هذه الشواغل، ويطلقونها على
كل عمل من الأعمال الجسدية التى تحول بين الإنسان وبين
الصفاء والنجاة.

وللأحياء عندهم خمس درجات يعلو بعضها فوق بعض
على حسب نصيبها من الإحساس: أول هذه الدرجات درجة
الأحياء ذات اللبس، وتليها درجة الأحياء ذات اللبس والذوق،
وتليها درجة الأحياء ذات اللبس والذوق والشم، وتليها درجة

الآحياء ذات اللس والذوق والشم والسمع والنظر ، وتليها
درجة الآحياء ذات العقل أو الروح « ماناس ، Manas وهي
نوع الإنسان .

وفي الإنسان وحده تتجلى الروحانية العليا في الوجود ،
ومنهم من يعتقد أن الروح الإلهي لم يصعد إلى الروحانية
الإلهية من غير هذا الطريق .

ولابد من الولادة مرة بعد مرة للخلاص من أوهاق
الجسد ونقائص المادة وحجب الشهوات . فإذا مات الإنسان
ترك في الأرض جسده وذهبت روحه بجسدين متلابيين
أحدهما أرق من الآخر وأصفي ، ولن يخلص من محنة التجسيد
حتى ينسلخ عن جميع هذه الأجساد . ولولا ذلك لاستطاع
الإنسان أن ينجو إلى عالم الروح بقتل نفسه بيديه ، وهو عندهم
غير جائز له ، كما لا يجوز له قتل سائر الآحياء . ومن هنا
لا يقولون بقتل المرأة نفسها بإحراقها مع زوجها ، كما تقول
الكثيرة من البرهميين .

* * *

وليس الزواج محرماً في النحلة الجينية بطبيعة الحال ،
ولكن الإمام الذي يرتفع إلى درجة الهداية في دورة من
الزمن لا ينجو من العودة إلى الولادة ولا يبلغ « الموكشا ، أي

الخلاص إلا إذا عصم نفسه من كل علاقة جنسية ومنها الزواج . فهو يولد من جديد مادام يلد أو ينقاد لغريزة التناسل ، ولو لم يكن له أبناء .

ولا ينحصر الزواج بين الجينين في أبناء طبقة واحدة . لأن الجينية لا تدين بتفاوت الطبقات ولا تجعلها أصلاً من أصول الدين . فعمل الإنسان هو الذي يرتفع به أو ينحدر في طبقات الخليقة . وتنص كتبهم نصاً صريحاً على أن الإنسان بعمله وحده يصبح من البرهمان أو الكشترية أو الفيشا أو السدرا ، وهم المنبوذون . ومن الرذائل التي تحول عندهم بين الإنسان والخلاص الروحاني أن ينظر إلى أحد نظرة استعلاء ولو كان من المجرمين . فالحب Daya هو ملاك جميع الأخلاق والفضائل ، وآية الحب أن تحسن ، ولا تنتظر الجزاء ، وأن تفرح لفرح غيرك وتحزن لحزنه ، وتبتئس لسوء حظ المسمى الذي حرم نعمة لإحسان .

وعلى كل جيني أن يروض نفسه على الشظف والقناعة والصبر وضبط الشعور ، وأن يعطى دائماً ولا يأخذ من أحد شيئاً بغير رضاه .

وتعتبر الجينية فلسفة كونية كما تعتبر من ديانات التعبد والسلوك .

فالكون عندهم عناصر أربعة هي : الزمان ، والمكان ، والروح ، والمادة . ويضاف إليها عنصران آخران يربطان بينهما ، وهما : الحركة ، والسكون .

والمادة عندهم مركبة من أجزاء دقيقة لا تتجزأ ، كالجوهر الفرد في تعريف فلاسفة اليونان .

ولا تسبق الروح الجسد في تركيب الإنسان . بل تنشأ الحياة الجسدية قبل الحياة الروحية ، ثم تترقى الروح إلى مرتبة الصفاء بما تحاوله من مغالبة النوازع الجسدية واستخلاص حريتها من القيود المادية . ولها في ذلك ثلاث مراحل : أولها سابقة لتطور قواها ، وثانيها في خلال هذا التطور ، ونهايتها تأتي بعد انتهاء التطور وبلوغ مرتبة الخلاص والصفاء .

وعلامة التطور الناجح ثلاث : عقيدة الحق ، ومعرفة الحق ، وعمل الحق . ولا سبيل إلى هزيمة الروح في صراعها مع الجسد إذا تناسقت فيها هذه الصفات .

وهم يقولون بالروح الذاتية لكل حي من الأحياء ، ولا يقولون بفنائها في روح أكبر منها ، ويخالفون بذلك عقيدة البراهمة الأولين في وصف الله وتجريده من الذات ،

وقد يصفون الله بصفات الخلق والتكوين ، ويتجهون إليه
بالصلاة طلباً للهداية والتعليم والمعونة على فتن الشهوات .
فالجينية تدين بالذات الإلهية ، ولا تعتبر الإله « معنى ،
خلوا من الوحدة الذاتية ، ولكنها تستلهمه الصواب كما
يستلهم التليذ معله ، وتسترشد به كما يسترشد السارى بدليله
في ظلمات المجهول ؛ وتقول لاتباعها إن الله لا يعين أحداً ما لم
يكن منه عونٌ لنفسه . فلا مناص من عمل الانسان واجتهاده
قبل كل خلاص واهتداء .

وفي جملة هذه الفلسفة السكونية ما يرجح الظن برجوع
الفيلسوف الألماني « هيغل ، إليها ، في تفصيل مذهبه الذي
تسمى بالمثالية الثنائية Dialectic Idealism .
فالجينيون يقولون بأن الوجود الصحيح جوهر dravya .
والجوهر عندهم لا بد أن يحتوى فيه ثلاث حالات : حالة
النشوء ، وحالة النقص ، وحالة الدوام .

« فلا يظهر شيء في الوجود بغير نقص ، ولا يكون نقص
بغير نشوء ، ولا سبيل إلى نشوء ونقص في غير دوام ،
وخلاصة مذهب « هيغل » أن كل شيء ينشئ ، ونقيضه . ثم
يجتمع الشيء ونقيضه في وجود أكمل من الوجود الأول ،
ثم يعود هذا الوجود الأكمل فينشئ نقيضه كرة أخرى ،

حتى تستوفى الحقائق وجودها من جملة وجوه ، ولا تنحصر
في وجه واحد .

وهذا التطور في مذهب « هيغل » ينتهى إلى ظهور
« العقل الواعى » فى الكون حتى يظهر فيه الانسان . . وقد
أسلفنا أن الجينيين يقولون أن تطور الانسان هو المظهر
الذى تتجلى به الروح فى هذا الوجود .

وتشتمل الكتب الجينية على وصايا كثيرة تدل على أنهم
يقينيون فى عقيدتهم الدينية ، وليسوا من الشكوكيين
« اللادريين » . كما تدل على أنهم يقينيون جازمون فى مسائل
الأخلاق .

وهذه أمثلة من تلك الوصايا مقتبسة من كتبهم الكثيرة :

الإحسان بغير عقيدة ، لن يكون وسيلة للخلاص .

على المرء أن يعامل الخلائق جميعاً ، كما يحب أن تعامله .

إن تأملات الشكوكيين لا تنتهى إلى معرفة . فهم بأنفسهم
لا يصلون إلى الحق ولن يصلوا بغيرهم إليه .

الرعاة الصالحون ، الكهان ، يرحمون جميع الكائنات ،
ويجتنبون الخبائث ، ولا يمدون أيديهم إلى طعام يصنع لهم
خاصة ، ولا يقدمون على شر أو إساءة .

* * *

غلبة النفس عسيرة ، ولكنها إذا تيسرت فكل شيء
مغلوب .

* * *

لا معرفة للحق بغير عقيدة في الحق ، ولا سلوك على
الحق بغير معرفة للحق ، ولا خلاص بغير سلوك ، ولا كمال
بغير خلاص .

* * *

ينتصر الإنسان على ألوف من الأعداء الشجعان ، ولكنه
أعظم من ذلك انتصاراً إذا لم ينتصر على غير إنسان واحد :
هو نفسه .

* * *

من جمع حياته في روحه لم يرهبه الموت إلا كما يرهب
المرء من تبديل كساء بكساء .

* * *

الأعداء والأقرباء ، والنعيم والبأساء ، وحفنة من التراب

وقبضة من الذهب سواء عند الناسك المنقطع للروح Shramana .

* * *

اجهد نفسك واحكمها .

* * *

قد يمسح الروح كلباً ، وقد يصعد الكلب إلى عليين .

* * *

وسائل ثلاث لاتسى بها إلى أحد : كلمات ، وأفكار ،
وأعمال .

* * *

شر من الكافر ، من يضع شريعة القتل .

* * *

لاشقاء لمن لا وهم له ، ولا وهم لمن لاشهوة له ، ولا شهوة
لمن لا مطمع له ، ولا مطمع لمن ليس في يده شيء .

* * *

كل ما حققته والفكر هادىء ، والحس مغلوب ، فذلك
هو الروح المطلق .

* * *

للإجرام وسائل ثلاث : عمل الجريمة ، والإغراء بها ،
والثناء عليها .

الحكمة تعترف بحق الشريعة .

* * *

أقسم على خمس : لا تقتل ، لا تكذب ، لا تسرق ،
لا تستسلم للشهوة ، لا تتعلق بعروض الحياة .

* * *

في كل ما يعرض للروح من أحوال بعد أحوال ، هي
وحدها مسئولة عن كل حال .

* * *

هذه خلاصة كافية في هذا المقام للعقيدة الجينية — عقيدة
غاندى — وهي أهم شيء في كيان غاندى وسيرته وعمله . لأن
العقيدة عنده مقدمة على السياسة وعلى الوطنية ، وهي مرجعه
فيما يأخذ وفيما يدع من وجوه الإصلاح ووجهته في دعوة
الحرية ومبادئ الأخلاق ، وهي باعثة الثورة فيه على القوة
الغالبة ، ومعدن السلاح الذي استعد به لتلك الثورة : سلاح
الحب ومقاومة العدوان بالصفح والغفران .

وقد أشرنا في فصل آخر إلى تعليقات لغاندى على دياناته
وعلى الديانات عامة ، ونشير هنا إلى العقائد التي يُستغرب من
مثل غاندى — في استنارته وجرأته على إنكار ما لا يسوغ
في ذهنه — أن يدين بها من هذه النحل البرهمية ، وفي مقدمتها

عبادة البقرة أو حمايتها كما يؤثر هو أن يسميها في تعبيره عن هذه العقيدة . فإن شعائر دينه تنقسم عنده إلى نوعين : أحدهما يقبله عقله كتناسخ الأرواح ورجعة الإنسان إلى الحياة الدنيا عدة مرات ، والآخر يفسره على وجه خاص ليقبله كما يقبل العقائد السائغة في تفكيره . ومن ذلك عبادة البقرة التي لا يجوز عنده أن تُعبد على التأليه والتقديس ، وإنما تعبد لأن عبادتها أو حمايتها رمز للصلة بين الأحياء الناطقة والأحياء العجاء ، أو رمزٌ لشمول الحياة في العالم لكل كائن تدب فيه حياة . وعنده أن حماية البقرة أصل جوهرى من أصول الديانة البرهمية على هذا الاعتبار ، وأنها أعجب ظاهرة في تطور الإنسان . إذ كانت البقرة على الاعتبار المتقدم رمز ما دون الحياة الإنسانية من ضروب الحياة التي تناولها التطور والارتقاء ، وهى أصلح تلك الأحياء لإبراز هذا الرمز الشامل فى أطيب مظاهره . فليست هى بحيوان مفترس ، وليست هى بحيوان مؤذ ، وليست هى بالحيوان البعيد من معيشة الإنسان منذ أقدم عهوده . وقد كتب عنها يقول : « إن أئنا البقرة أبر فى كثير من الأمور من الأم التى تلدنا . فإن الأم التى تلدنا تعطينا اللبن نحو سنتين وتنتظر منا أن نخدمها طويلا متى بلغنا أشدنا ، أما أئنا البقرة فلا تنتظر منا شيئاً غير الحب والعشب » .

وقد كان يذكر أحياناً كلمة السيد المسيح : « أحبب
جارك كنفسك » ثم يضيف إليها : « وكل كائن حي للإنسان
جار » .

ولا يفوتنا أن نستعيد دائماً في هذا الصدد كلمته التي
يقولها عن هوى كل إنسان لديانته وإن لم تسلم من عيب .
فقد كان يقول : « إن المرء يحب ديانته كما يحب امرأته ، وهو
يحب امرأته وإن لم تسكن أجمل أنثى في نظره ، لأنها هي
امرأته ، لا لأنها أفضل النساء » .

وما نحسب أن غاندى كانت تفوته الفطنة لغرائب ديانته ،
ولكنه كان يأخذها على العلات ، لأن الإيمان مع التجوز
في بعض رموزه خير عنده من ترك الإيمان .



صلاة

عقيدة غاندى هى أهم شىء فى بنيان شخصيته .

وصلاة غاندى هى أهم شىء فى بنيان عقيدته .

فنحن لهذا نقرب من فهمه كلما اقتربنا من فهم صلاته ،
لأن الصلاة عنده لا تنبعث عن طلب أو استغاثة أو ابتهاج ،
ولكنها تنبعث إلى حس فوق الحس ، وفوق التفكير ، وفوق
الطلب والابتهاج .

وهى عنده ، كما هى عند الجينيين عامة ، أعلى مراتب الوعى
الذى يحتاج للكائن الموجود .

فالروح الإلهى فى اعتقادهم سارٍ فى جميع هذه الموجودات ،
مبثوث فى جميع الأجسام والأجساد ، ولا يزال الانسان
محصوراً فى أوهاق الجسد أو فى أوهاق المادة على العموم ،
ما دام معتمداً على الحواس ، أو على العواطف أو على التفكير
فى إدراك ما حوله . ولكنه يرتقى إلى مرتبة من الوعى أعلى
من مراتب التفكير ، عند ما يدرك الروح خالصاً منزهاً من
هذه الأوهاق .

فهو لا يصل بالحس إلى شيء أرفع من المادة أو المحسوسات المادية .

وقد يرتقى بالتفكير إلى شيء أرفع مما يدركه الحس ، ولكنه لا يتجاوز به حدود المحسوسات .

وهناك مرتبة من التفكير أعلى من مرتبة «التعقل المنطقي» وهي مرتبة « التأمل » ، والانقطاع بالوجدان عن كل ما يحيط بالانسان .

ففي هذه المرتبة يستطيع الانسان أن يسيطر على جسده ويسيطر على الطبيعة ، ويرتقى إلى الحالة التي يقهر بها المادة ، ويصنع الخوارق ، ويخالف العادات ، وهي تسمى عندهم حالة « السديهي ، Siddhis أو الصديقية إذا كان للفظ صلة باللغات السامية . ولكن هذه الحالة لا تزال دون حالة الخلاص المطلق بكثير ، وهي التي يسمونها كيفاليا Kaivalya أو التجلي الأعظم . بل ربما خيف على صانع الخوارق أن يفسد كل ما صنع إذا أعجبه قدرته على تسخير الطبيعة فاغتر بها ، واسترسل فيها ، لأنه لا يزال محصوراً في « أنايته » الباطلة ، كلما أعجبه السيطرة وأحب المزيد منها . وإنما ينفعه صنع الخوارق لسبب واحد ، وهو تثبيت يقينه بالسير على الهدى في طريق الخلاص ، وأنه قد بلغ إلى مرتبة ينتقل منها إلى

المرتبة التي تليها ، وهي غاية الغايات التي تسمو إليها قداسة الانسان .

ومتى ترقى القديس إلى مرتبة الخلاص فهناك يلتقي بالروح الإلهي خالصاً مجرداً من علاقات كل مادة وكل محسوس ، ويلبح الحقيقة المجردة التي تفضل عنها الحواس والعقول ، وينتقل إلى سماء من السعادة المطلقة لا توصف ، ولا تقبل الوصف بالكلمات ولا بالأفكار ، لأن الكلام مقيد بالفكر ، والفكر لا ينطلق من جميع القيود . ويطيب للقديس أن يستعيد هذه اللحظات كلها استطاع ، وهو لا يستطيعها في كل حين .

وقد كان غاندى يصلى ليستعيد هذه السعادة ، ولا ينتظر شيئاً غيرها من الصلاة ، ولم يعنه قط أن يصنع الخوارق أو يسيطر على قوانين الطبيعة . لأن الخوارق لا تقصد لذاتها ، ولا تراد إلا على سبيل البرهان ، ولا حاجة بالمشبت إلى برهان .

وكان يود لو ينقطع للصلاة مدى حياته ، ولكنه كان يعلم إن لقاء الروح الإلهي مدى الحياة أمر يفوق الطاقة الإنسانية ، فكان يتزود منها بغاية ما يطيق ، ويؤثر هذا الزاد على كل زاد فيه غذاء للجسد ، أو غذاء للعقل ، أو غذاء للروح .

قال في محاضرة له عن الصلاة : « إن من يختبر سحر الصلاة قد يستغنى عن الطعام أياماً ، ولا يستغنى عن الصلاة لحظة واحدة . إذ لا سلام في داخل الضمير بغير صلاة » . وقال لسامعيه من الطلاب في تلك المحاضرة : « إن في صدر الإنسان لصراعاً أبدياً نائراً بين قوى الظلام وقوى النور ، ومن لم يكن له مرفأ أمين من الصلاة يلوذ به ، فهو خليق أن يقع فريسة لقوى الظلام » .

ثم قال : « إن الصلاة هي صميم قلب الحياة الإنسانية . وهي الجوهر الحيوى في كل ديانة ، وقد تكون توسلاً أو اتصالاً من باطن الروح ، ولكن الغاية التي تنتهى إليها واحدة . فإنها حين تكون توسلاً ينبغي أن يكون التوسل التماساً لتطهير الروح وتنظيفها من الأدران ، وانتشالها من أطباق الجهل والظلام التي تطبق عليها . فكل من تطلع إلى إيقاظ الجانب الإلهي في نفسه فلا مناص له من اللباز بالصلاة . إلا أن الصلاة ليست تمريناً في الكلمات أو التراتيل ، وليست مجرد تكرار للصيغ والعبارات . فما من تكرار لتراويل « الرمانا ، إلا وهو عقيم إن لم تصحبه يقظة في الروح ، وخير في الصلاة قلب بغير كلمات من كلمات بغير قلب . . . » . وهذه هي الصلاة كما يصفها للتعلين ، وقد كان يخاطبهم

حين يكلمهم عنها باللغة التي يخاطبونه بها ، وهى لغة العلوم التجريبية ، فكان يقول لهم : « إن نفع الصلاة قد ثبت للبصليين بالتجربة من قديم الزمن . فلا يجوز لهم إنكارها إلا بعد تجربتها ، ولن يجربوها حتى يجدوا فى التجربة ولا يتخذوها عبثاً أو سخرية . » وكتب له أحد الطلبة يقول : « إنه لا يصلى لأنه لا يعلم ما جدوى الصلاة ؟ » فقال له : « ألا يتعلم التلاميذ براجمهم إلا بعد أن يعرفوا تلك البراج ويعلموا جدواها ؟ » وقال فى هذا الصدد : « إن العقل شئ عظيم ، ولكنه يصبح غولاً كريهاً إذا ادعى لنفسه أنه قادر على كل شئ محيط بكل شئ . » وأن نسبة هذه القدرة إليه لى نمط ردىء من الوثنية . فالعقل عند هؤلاء العقليين وثن يعبدونه كما يعبد الوثني حجراً أو نصباً ، ويعتقد فيه أنه إله . »

وأشار إلى التجربة فى حالة الإنكار فقال : « إن الذين انقطعت الصلة بينهم وبين الله وامتنعت عليهم وسيلة الاتصال به بوحى الغريزة أو المعرفة أو التقليد ، قد شعروا ، على الأقل ، بسوء الحالة وجربوا أنها حالة محزنة موحشة فى أعماق الطوية ، ومنهم برادلو Bradlaugh الفيلسوف الملحد المشهور . . . فالتجربة فى الحالتين تدل على قيمة الصلاة . »

وغاندى يذكر التجربة للذين يناقشونه فى الصلاة بأساليب

العلوم التجريبية . ولكن الصلاة في حياته ليست تجربة ولا استطلاعاً ولا وسيلة إلى غاية . إنما هي غاية الغايات ، لأنها هي التقاؤه بالروح الإلهي في أفق أعلى من أفق الحس والتفكير والمراجعة . وليس للإنسان غاية أسمى من هذا اللقاء .

فإذا شعر بأنه قد صلى ، وأن صلاته قد استولت عليه ، ونقلته من شواغل ذاته إلى أفق الروح الإلهية ، خرج من صلاته ماضياً فيما آمن به واتجه إليه ، ولم يبال ما يعرض له من النقائض والمجادلات عند التطبيق أو المناقشة ، لأن المناقشات والمجادلات والنقائض من أحاييل الفكر التي يصطاد بها صغائر الأمور ، ولكنه لا يبلغ بها أن يحدق بعظام الأمور .

وليمان غاندى بالصلاة على هذا المعنى مفتاح من مفاتيح هذا العقل الذي كان يتناقض في وصاياه وأعماله ، ولم يكن من الجاهل بحيث يخفى عليه هذا التناقض في لغة الفكر والتعبير ، ولكنه كان يحتكم بالنقائض والمناقشات إلى مرجع عنده فوق مرجع الفكر ومرجع البرهان ، وهو النفاذ إلى مصدر الفكر ومصدر البرهان من الروح الإلهي المحيط بكل هذا الوجود ، وبكل مافيه من الأجزاء والفوارق والمفارقات .

لقد تقدم أن رسول «الاهمسا» قد بلغ من ثقته
بسلاحه أنه وصفه لهتلر قبيل الحرب العالمية الثانية ، وقد
حاول أن يقنعه بمضاء هذا السلاح في كل مشكلة ، وأنه
لأَمْضى من كل ما أعد من عدة ، وكل ما جند من جنود .
ولكن رسول «الاهمسا» قد عاش حتى شهد التجربة
الأولى لأمضى سلاح من أسلحة الحروب عرفه المقاتلون :
سلاح أمضى من كل ما أعدده هتلر وأعدده محاربوه في فاتحة
الحرب العالمية الثانية : وهو سلاح القذيفة الذرية .

وظنت الصحفية الأمريكية «مارجريت بورك هويت» ،
أنها تفحمه بسؤاله عما أعدده لمقاومة القذيفة الذرية ، فلم
يصف لها عدة للمقاومة غير عدته المعهودة التي تفل عنده
كل سلاح : وهي اجتناب العنف والصلاة .

قال : «أقاومها بالصلاة العاملة .. أخرج إلى العراء ، وأدع
ربان الطائرة يرى أنني لا أواجهه بوجه عدو . إنه لا يرى
وجهي على ذلك العلو الشاهق ، ولكن الصلاة القلبية التي
لا تسكن له ضرراً ولا تنطوى على بغضاء ، تبلغه في سمائه
فتفتح عينيه . إن الذين أماتهم القذيفة الذرية في هيروشيا
لو أنهم ماتوا وهم في صلاة عاملة ، واستقبلوا الموت والصلاة
في قلوبهم دون أن تنفرج شفاههم بأنة ألم أو صيحة خوف ،

لما انتهت الحرب كما انتهت بتلك النهاية المخزية ، .
ونعترف بأنه جواب غير مقنع ، ولكننا نعترف أيضاً
بأنه ما من جواب يجيب به ناظرٌ إلى خير الإنسانية كلها ،
هو أدنى من هذا الجواب إلى الاقناع .



ماهى «الاهمسا» ؟

ماهى هذه «الاهمسا» ، التى صيرت غاندى قديساً وطوعت له تلك القوة التى صنع بها ما لم يصنعه زعيم من زعماء بلاده ؟
إننا إذا فهمنا منها مجرد حب السلامة من طريق المسالمة كانت أسهل مذهب من مذاهب الحياة يدعى إليه ويستجاب .
لأن حب السلامة غريزة فى جميع الأحياء .

ولسكننا إذا فهمنا «الاهمسا» ، هذا الفهم كان ذلك أخطأ الخطأ فى عرفانها على حقيقتها ، لأنها ليست أسهل مذهب يدعى إليه ويجاب ، بل هى فى الواقع أصعب المذاهب فى الدعوة ، وأصعبها فى الاستجابة ، وأعسرها على التنفيذ والمراعاة .

فهى أصعب من الدعوة إلى القتال . لأن الدعوة إلى القتال لم تعدم مجيئاً فى وقت من الأوقات ، وهى أصعب من الدعوة إلى الشجاعة ، لأن الشجاعة قد تكون مطاوعة لدواعى الفطرة ، أو دواعى الحماسة الاجتماعية ، فلا تعدم الدعوة إليها مجيئين فى كل حين .

هى أصعب من هذه الدعوات وأمثالها ، لأنها تتطلب

مغالبة للنفس لا تتطلبها دعوة أخرى ، وقد تتطلب هذه المغالبة بغير نحر لصاحبها وبغير صدى من الإعجاب في نفوس أبناء قومه ، ولعلها على نقيض ذلك تعرضه للخزي والازدراء . وقد تنحصر الشجاعة في ضبط النفس واستجماع قوتها في وجه الخطر ، ولكن ، الالهمس ، تكلف العامل بها أن يضبط نفسه ، ويستجمع قوته في وجه الخطر ، وفي وجه الإغراء وفي وجه السمعة السيئة . فلا يهمل أن يوصف بالجن إذا كان هو على يقين أنه ليس بجبان وأنه لا يخاف .

وإذا قلت ، لا خوف ، فقد حشرت الشجاعة من جميع أطرافها ، سواء أردت الشجاعة في المسائل الجسدية أو أردت الشجاعة في المسائل الأدبية .

ولكنك لا تحصر ، الالهمس ، بهاتين الكلمتين ، لأنها تنفي الخوف وتنفي معه الكراهية . فلا خوف ولا كراهية . بل شجاعة ومحبة ، وهاتان الخصلتان هما ، الالهمس ، في اللباب . وقد قال غاندى غير مرة : إنه يفضل العنف على الجبن والفرار من الخطر . قال ذلك في إبان الفتنة الهندية سنة ١٩٢٠ ، وقال يومئذ إنه يفضل العنف ألف مرة على مسخ النوع برذيلة الجبن والفرار . ومن كان لا يبالى أن يقتل ويُقتل فهو خير ممن يفر من النزال ، لأنه يخاف القتل في مشعر

القتال . وقد كان يعلم الآثمين أنفسهم أن الفرار من الرذيلة أحجى بهم من الفرار من الموت : جاءه متهم مرة في جريمة سرقة واعترف له بالجريمة . فقال : عجبا . إنك كنت تعلم أنك تسرق وكنت تعلم العقاب على السرقة فلماذا فعلتها ؟ قال الرجل مقتنعاً : لأنني لا بد أن أعيش ... فأعاد غاندى كلمته مقتنعاً أيضاً : لا بد أن تعيش !! لماذا ؟ يريد أن يقول : إن العيش مع الرذيلة خير منه الموت .

« الالهمس » هي ترك العنف شعوراً بالقوة والقدرة النفسية وليست هي ترك العنف شعوراً بالضعف وعجزاً عن المقاومة . وقد كانت دعوة « الالهمس » أصعب الدعوات في الهند خاصة ، حين تصدى غاندى للتبشير بها وإحيائها في الآداب الهندية . لأن دعوته قد صادفت الثورة الوطنية في إبانها ، وصادفت كفراناً من أبناء الهند بعقيدتهم القديمة في السماحة والمسالمة ، إذ كان فيهم من يعلل سطوة الإنجليز وخضوع الهنود بأن الإنجليز يأكلون اللحوم ، وأن الهنود يحرمون أكلها ويعيشون على غذاء النبات ، وشاعت بينهم أغنية بهذا المعنى يرددونها في المدارس والمحافل ، فكانت دعوة غاندى يومئذ تقاوم تيار الشعور في الهند نفسها ، وإن كانت من أعرق الدعوات في البلاد .

ولم يكن غاندى نفسه يجهل ما فى غذاء اللحوم من الفائدة الجسدية . فقد كان يرى من علاج الجرحى أن آكلى اللحوم يقاومون النزف ، وتندمل جراحهم قبل اندمال الجراح فى آكلى النبات ، وكان يرى أن القوة البدنية أعم وأظهر فى آكلى اللحوم . ولكنه كان يقول : إن القوة الإنسانية لا تأتى من قوة العضلات ، بل من قوة الإرادة ، وأن غلبة الروح على البنية أليق بالإنسانية من غلبة البنية على الروح .

وكل دين عرضة لأسئلة التعجيز أو التنطع من طلاب الفتاوى المتحملين . فلم يعدم غاندى عشرات الأسئلة من هذا القبيل ، إما تعجيز آله ، أو رغبة فى استيفاء العمل بنصيحته ، فمنهم من كان يسأله : هل يجوز لى أن أقتل الثعبان ، أو يجب علىّ أن أتركه يمضى لسبيله ؟ ومنهم من كان يسأله : هل تنفق الهند على جيش مسلح أو لا تنفق عليه ؟

فكان يجيب على كل سؤال من هذه الأسئلة بما يناسبه ويحصره فى حدوده . كان يقول لسائله عن الثعابين : إنك لا تقتل ثعابين الغضب والجشع التى فى صدرك ، ثم تبحث عن الثعابين التى قد تصادفها فى طريقك . إن هذه الثعابين ليست بمشكلة خلقية ، وإنما المشكلة الخلقية أن تقتلع جذور الكراهية والاندفاع مع الشهوة والهوى من صميم نفسك . وأنت

في حلّ بعد ذلك من كل صنيع تدفع به الأذى في غير عداوة ولا انتقام .

وكان يقول لسائليه عن الجيش : إن مسألة الجيش مسألة سياسية يحلها السياسيون ، ولكن « الالهسا » مسألة خلقية يحلها كل إنسان لنفسه ليضبط عنانه في يمينه ، وهو المرجع في كل فتوى تعرض له متى اطمأن من وسواس الجبن والكرامية والكبرياء .

هذه هي خلاصة « الالهسا » كما كان غاندى يبشر بها أبناء أمته ، وأبناء كل أمة تصل إليهم دعوته .
وهي ولا شك دعوة لا تقبل كلها ، ولا ترفض كلها ، ولكنها خليقة ألا تبخس حقها بسوء التصور أو سوء التطبيق .

وقد تتوقف كلها على فهم المراد بالعدوان أو سبب العدوان . فربما كان العدوان الأكبر في ترك المعتدى يفعل ما يشاء ، وهو في أمان من سوء عقابه .

وقد صدق غاندى حين قال : إن العقل الذى كشف عن « الالهسا » عبقرية أعظم من نيوتن وأشجع من ولنجتون .
ولسكنه قد يكون كذلك ، ولا يلزم ضرورة أن تكون هذه العبقرية في عصمة من الخطأ والإسراف .

«الاهمسا» من الوجوه العلمية

في الوقت الذي قام فيه غاندى بالدعوة إلى السلام واجتتاب المقاومة العنيفة ، كانت أوربة تضطرب بدعوة أخرى تناقضها تمام المناقضة ، وهى دعوة القوة والقسوة ، أو دين القوة كما سماه أتباعه ومروجه .

وكانت الدعوة إلى دين القوة تنبعث من جانب الفلاسفة والمفكرين ، كما تنبعث من جانب الساسة وقادة الجماهير .

فانتشرت النازية والفاشية فى أوربة الوسطى وأوربة الجنوبية ، وقام لها أنصار فى البلاد التى تزعمت فيها مبادئ الديمقراطية ، أو عجزت فيها الديمقراطية عن حل مشكلاتها وتعزيز الرجاى فى تحقيق مثلها العليا .

وكانت الشيوعية تحارب النازية والفاشية ، ولكنها لا تخالفها فى الإيمان بالقوة والاعتماد عليها وحدها فى إتمام الانقلاب الذى يقضى على نظام رأس المال ، ويقيم النظام الشيوعى فى مكانه .

وكان من الطبيعى أن تثير هذه الدعوة المطبقة مخاوف أنصار السلام ، ولا سيما بعد الحرب العالمية الأولى التى ابتلى

فيها الأوربيون من شرور الحرب بما بغضها إليهم ، وضاعف
مساعدتهم في منع الحروب وتقرير مبادئ الوساطة والتحكيم .
فنشأت جماعات الأمم ، وكثرت دعاة السلم والمسالمة ، وتصدى
للكتابنة في هذا الغرض نخبة من أقطاب المفكرين وحملات
الأقلام . وتحول الأمر إلى عقيدة شعورية لفرط النفور من
الحرب ، وشدة الحاجة إلى إيمان يقابل إيمان المبشرين بدين
القوة وشرعية العنف والقسوة .

وانتقل صدى « الالهسا » إلى أوربة فوصل إليها في أوانه ،
ودان بها بعض كتابها على طريقة الغربيين في كل دعوة ، وهي
عرضها على العقل من جانب البحث والعلم ، غير مكتفين
بالبشارة الروحية أو المواعظ الدينية على طريقة دعاة
« الالهسا » من الهنود .

ومن خيرة الكتاب في هذا الغرض — على هذا النحو —
« ريتشارد جريج Gregg » ، صاحب كتاب « قوة اللاعنف
أو المسالمة » « The Power of Non-Violence » .

فإنه قد حشد لتعزيز هذا المذهب كل ما يمكن أن يحشد
له من تقارير العلوم الحديثة ، وفي مقدمتها علم الحياة وعلم
النفوس ، واستشهد بتجارب التاريخ كما استشهد بكل تجربة
نافعة من تجارب الزمن الأخير .

ومن أمثلة آرائه التي تدل على منحي تفكيره ، قوله في
تعليل الخوف والغضب : « إن لها - من الوجهة الفزيولوجية -
وظيفة نافعة وهي إعداد البنية للعمل عند الحاجة إلى الهرب أو
القتال ، ويشتمل هذا الإعداد على استنهاض قوى البنية
وحفزها بحملتها : دماغاً وأعصاباً مسيطرةً على العضلات
الخاضعة للإرادة ، أو أعصاباً مسيطرةً على العضلات التي تعمل
من تلقائها ، أو جهازاً للتنفس ، أو نظاماً للدورة الدموية ،
أو إفرازاً من بعض الغدد التي تدخل فيها الغدة الدرقية والغدة
الكظرية والكبد ، لتقذف في مجرى الدم من المواد ما يصلح
لتوليد الطاقة والحركة . وإذ كانت الأفكار على الأغلب الأعم
في طبيعتها من قبيل الخطط التي ترسم وسائل العمل الممكنة ،
كان من شأن الخوف والغضب أن يعملوا في العقل كذلك ،
بحيث يمكن أن يقال أن الخوف والغضب يعتبران حالة
انتقال من نشاط أقل إلى نشاط أوفر وأقوى . »

وعرض للناحية النفسية ، فاستشهد بقول العالم النفساني
شاند Shand : إن الدهشة تجبّ شعور النفور والاشمئزاز
والاحتقار بما هو موضوع الدهشة . فإذا اعتدى إنسان على
إنسان فقاومه المعتدى عليه عنفاً بعنف وقسوة بقسوة ، فإذا
يكون من أثر ذلك في نفس المعتدى ؟ إنه يزداد إيماناً بصحة

الوسيلة التي استخدمها واعتبارها مرجعاً صالحاً لتسوية النزاع بينه وبين خصمه . فلا يتزلزل اعتقاده بحقه فيما عمل . بل يتأكد عنده هذا الاعتقاد وينشط للبضى في عدوانه . ولكنه إذا اعتدى فلم يلق من المعتدى عليه مقاومة من طبيعة اعتدائه ، فقد يقع في روعه لأول وهلة أنه جبن ومهانة وضعف من ذلك المعتدى عليه . ولكنه لا يلبث أن يعلم من مظهره ومخبره أنه ليس بالجبان ولا بالمهين في نظر نفسه حتى تأخذه الدهشة ، فيكف عن الاحتقار والترفع ، ويرجع إلى نفسه فيحاسبها على اعتدائه ، ويستطيع أن يدرك في هذه الحالة أن الاعتداء مخجل لصاحبه ، وليس بالمرجع المعترف به في معاملة غيره .

ولا نزاع عندنا في صواب هذه التقارير من الوجهة الفزيولوجية أو الوجهة النفسانية ، ولكنها فيما نرى محل نزاع كثير في تسويغ « الهمسا » على إطلاقها ، أو في القول بأن المقاومة من جنس العمل أمر لا تدعو إليه الحاجة ، في حياة الفرد أو حياة الجماعة .

فقد تكون عوارض البنية التي تنفع الانسان في حالة الغضب أو الحرب تديرأ فزيولوجياً لا تدعو الحاجة إليه الآن كما كانت تدعو إليه أيام الهمجية الأولى ، أو قبل هذا الطور من

أطوار الحضارة ، وهو طور لا ينتفع فيه الانسان بالغضب والخوف على ذلك المنوال ، ولا يحتاج إلى الهرب ولا إلى النزال كلما غضب أو خاف .

لكنّ الواقع أن الأخلاق جميعاً تقترب بحالات جسدية من هذا القبيل ، وإن الدواعي الجسدية قد تزول ويبقى الخلق لازماً بعد بطلان الأسباب التي أوجبت دواعيه الجسدية . ومثال ذلك خلق الأنفة ، وهو كما يدل عليه اسمه ، خلق كان في نشأته مقترناً بحركة تلاحظ على الأنف خاصة . فإن الانسان إذا أنف في عصر الحضارة من بعض ما يسمع به أو يراه ، شمخ بأنفه أو قبض منخره أو أشاح بهما إلى هذا الجانب أو ذاك ، كأنما يتق رائحة كريهة يعافها ويود الابتعاد عنها .

وكان أصل هذه الحركة الجسدية فعلاً هو انقاء الروائح الكريهة التي لا يحب الانسان أن تسرى إلى صدره ، ثم أصبحت هذه الحركة الجسدية ملازمة للأنفة من الأشياء التي لا رائحة لها ولا علاقة لها بالمنخرين أو بالنفس الذي يدخل إلى الرئتين .

كذلك يبصق الانسان أحياناً علامة على الامتعاض والاستهجان ، وما هي في الأصل إلا حركة جسدية تعليلها

هياج غدد اللعاب عند مقابلة النظر أو الشم لشيء لا يقبله الجوف . ثم انتقلت من المحسوسات إلى الأشياء التي لا يقبلها العقل أو الضمير .

ويتناول الانسان إذا وقف في مواقف الصلوة والكبرياء ، وكان ذلك مما ينفعه أمام خصمه ليروعه بامتداد أعضائه وقوة جسده . ولكنه الآن يتناول كلها اعتر بقوة نفسية أو جسدية ، وقد تكون القوة نفسية محضاً لا تقع عليها العين .

ويشير الانسان بظهر يده في غير جهد ولا اكتراث إذا استخف بأمر من الأمور ، وكأنه يدفع شيئاً بلغ من خفته وهوانه ، أنه يدفع بأيسر حركة من أصابع اليد الواحدة . وهو إذا استخف عقله ، أو استخفت نفسه بذلك الأمر ، لا يدفع شيئاً يدفع باليدين على أية حال .

فالحركات النفسية قد تقترن بحركات جسدية بطلت حكمتها أو بطلت موجباتها « الفزيولوجية » ، ولكن بطلان تلك الموجبات لا يدل على بطلان الحركات النفسية التي تلازمها . ولا يفيد أن الغضب والخوف مثلاً لا ينفعان اليوم لأن العوارض الجسدية التي لازمتها زمناً طويلاً كانت نافعة من الوجهة الفزيولوجية ، ثم بطل نفعها في عصر الحضارة من هذه الوجهة .

فإن الغضب والخوف قد ينفعان اليوم من الوجهة النفسية ، وإن لم تستفد بنية الإنسان من هياج الغدد أو تيقظ الأعصاب وتنبه الدماغ .

أما أن المعتدى يخجل من اعتدائه إذا رأى السباحة من المعتدى عليه في غير جبن ولا استكانة ، فذلك صحيح في كثير من المعتدين ، وله ولا شك أثره في تأنيب الضمير وتعويده السكف عن العدوان ، وقلة الاعتزاز به والالتجاء إليه .

ولكننا ، سواء حدث هذا أو لم يحدث ، لا يصح أن نفهم منه أن الخير قوة « سلبية » لا عمل لها إلا أن تترك الشر يعمل ثم تقابله بالسباحة والإغضاء .

فهل قصارى الخير أنه لا يقاوم الشر ؟ وهل من حق الشر وحده أن يبدأ بالعمل ويتمادى فيه ، وأن تترك له أن يخجل أو لا يخجل من عاقبة عمله ؟

ألا يوجد ثمة نوع من السكبح والزجر يعيد المعتدى إلى ضميره فيشعر بتأنيبه ويرجع عن عدوانه ؟

ألا يلزم أن يشعر المعتدى بعجزه عن الاعتداء في كثير من الأحيان ؟

أليس هناك فرق بين من تأصلت فيه ضراوة العدوان وبين من يستسهله لأمان عقباه ، وهو على استعداد للرجوع

عنه إذا لقي المقاومة من أول اعتداء ؟ ...
 ألا يكون الخير خيراً إلا إذا ضربه الشر فصفع عنه ؟
 ألا يجب على الخير أحياناً أن يضرب الشر وهو
 خير لا يزال ؟

فإذا قصرنا الخير على المسامحة ، أو جعلناه فضيلة سلبية
 أو فضيلة مجاوبة ، فقد يصح على احتمال من الاحتمالات أن
 الكف عن مقاومة الشرير تصلحه في حالات ، ولا تصلحه
 في حالات .

وينبغي أن تهدينا دهشة الشرير من الكف عن مقاومته
 إلى حقيقة نفسانية أخرى جديرة بالاعتبار في معاملة
 الأشرار ، وهي أن هذه الدهشة تدل على إيمان متأصل في
 النفس الانسانية بأن رد العدوان إليها جزاء معقول يصيبها
 بالحق . فهو من ثم لا يضربها بالشر ولا يملئ لها فيه ، كلها
 اعتدت فقبلت بمقاومة الاعتداء ، وبخاصة حين تجيء
 المقاومة من المجتمعات التي تتولى صيانة نفسها بأحكام
 القوانين ، لانتفاء « البواعث الشخصية » ، هنا وصدور الحكم
 من ليست له فيه مصلحة أو دافع انتقام .

أما إذا اعتبرنا الخير قوة عاملة ، أو قوة إيجابية ، فمن

الواجب إذن أن تعمل وأن تزيل الموانع من طريقها ،
وكثيراً ، ما تكون إزالة الشر وإزالة الشرير شيئين متلازمين .
وأياً كان الأثر في نفس الشرير فمما لا شك فيه أن إزالة
شرير من العالم أربح للعالم من إزالة خيرٍ انتظاراً لإصلاح
شرير . لأن بقاء الخير المضمون أربح للعالم من الرجاء في خيرٍ
فقط ، قد يكون وقد لا يكون .

لكن العبرة في مذهب « الالهmsا » بعد هذا كله ، هي
أن المذاهب الانسانية تتوازن وتتقابل ، وينطلق أحدها إلى
أقصى الشدة فينطلق الآخر إلى أقصى اللين .
فهذا الالهmsا ، معقولة إذا كان في العالم مذهب ينادى بأن
القسوة دين مقدس ، وأن القوة الغاشمة مقطوع الحق كله ،
وأن البطش بالضعفاء حق مطلق للأقوياء ، وأن العلاقة بين
القوى والقوى لا تكون إلا علاقة نزاع وغلاب .
هذا الغلو في العنف يقابله ذلك الغلو في اللين .

ولا بد من قوام بين الطرفين التقيضين ، وهو قوام
الامر الذي أخذت به العقيدة الإسلامية . فلا اعتداء
ولا قبول للاعتداء ، وإذا صفحت فذلك حق لك ، ولكنه
ليس بحق عليك في كل حال .

« ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » .
« فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » .
« ولا يجرمَنَّكم شأن قوم على ألا تعدلوا . اعدلوا هو
أقرب للتقوى » .
« إن الله يأمر بالعدل والإحسان » .
« فمن تصدق فهو كفارة له » .
« وإن تَعَفَّوا وتَصَفَّحوا وتَغَفَّروا فإن الله غفور رحيم »
« وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم
والله غفور رحيم » .

في هذا القوام بين طرف العنف وطرف اللين صلاح
الآخيار والأشرار . فالعدوان ممنوع ورد العدوان حق ،
والصفح عنه جائز لمن يطيقه أو لمن يراه .
وبهذا يخرج الخلق من « الآلية » إلى مجال التصرف
الإنساني الذي يليق بذوى النفوس والعقول . فلا عدوان
في كل حال ، ولا مسالمة في كل حال . لأن هذا وذاك عمل
آلات لا تفرق بين موضع العنف وموضع اللين ، وإنما
يكون الخلق خلقاً حين يتعالى عن صنيع الآلات .
والإنسانية بحمد الله لا تأخذ كل ما يقوله الدعاة ولا تنبذ

كل ما يقولون . بل هي لا تأخذ ماتظن أنها أخذته ، ولا تنبذ
ماتظن أنها نبذته . وإنما يخلص لها ما تعرفه وما لا تعرفه من
تلك الدعوات .

وفي ذلك آية شاهدة على أنهم جميعاً مسوقون لما يرادهم
لما يريدونه . أو هي آية شاهدة على عناية من فوق إرادة
الإنسان .

وإذا ألقى هذا الصيدلى فى بوتقة الدواء عقاراً غير صالح ،
وألقى ذلك الصيدلى فيها عقاراً آخر غير صالح ، ثم خرج من
هذه العقاقير كلها دواء فيه صلاح ، فذلك دليل على الطب ،
ودليل على الطبيب .

ثقافة غاندى

كتب غاندى فى صحيفته مرة عن الطالب والمطالعة، فقال عن الأدب المكشوف : « لقد كان رينولد - أحد الكتاب المشهورين بوصف المناظر المكشوفة - صاحب حظ بين الطلاب فى أيام تليدنى، فلم أنج من قراءته إلا لأننى كنت أبعد شىء عن أن أوصف بالطالب الأملعى، ولم أعن قط بالخروج من نطاق الكتب المدرسية، ولكننى ذهبت إلى انجلترا فوجدت مع هذا أن أمثال هذه القصص منفية من كل بيئة متحشمة، وأننى لم أخسر شيئاً إذ لم أطلع على واحدة منها... » ونحن نفهم هذه الكلمة فهماً صحيحاً إذا فهمنا منها أن « المهاتما » لم يكن متبحراً فى المطالعة، ولم يكن قط من أولئك الذين يوصفون بين الغربيين بأنهم ديدان كتب أو أحلاس مكتبات .

ولكننا نخطئ فهمها إذا خطر لنا أن نصيب الرجل من الثقافة كان نصيباً نزرأ بين أمثاله، أو أنه عاش فى عزلة عن ثقافة الأمم الأخرى، وبخاصة ثقافة عصره، ونعنى بها ثقافة القرن التاسع عشر على التخصيص .

فالواقع أن غاندى لم يكن منزور الحظ من الاطلاع ،
ولم يكن مقصوراً فى قراءته — أثناء التلبذة فى أوربة — على
الدروس التى كان متخصصاً لها بحكم هذه التلبذة ، وهى دروس
التشريع والعلوم السياسية .

فقد اطلع على أفلاطون وترجم منه « دفاع سقراط » إلى
اللهجة الجوجراتية ، وهى لهجته الوطنية .

واطلع على كارل ماركس ، وجون ستيوارت ميل .

وأعجب بتولستوى الروسى ، وماتسنى الإيطالى .

وتتبع آثار « رسكن » ، وترجم له كتابه « حتى هذا المصير » ،

Unto this last إلى اللهجة الجوجراتية .

وكان يقرأ « ما كولى » ، ويستطيب أسلوبه وبراعته

فى تعبيره .

وكان يستحسن « ثورو » الأمريكى ، ويعجب بمعيشته

وآرائه .

ودرس اللاتينية فاستطاع أن يتذوق فيها عيون الأدب

القديم فى بلاغته الأصلية .

وقليل من المصلحين الشرقيين فى زمانه من أخذ بنصيب

من الثقافة العامة أوفى من هذا النصيب .

* * *

غير أننا نخطئ مرة أخرى إذا فهمنا من هذا أنه تتلذذ لواحد من هؤلاء وتوجه معه إلى وجهته الفكرية أو الروحية وإنما كان يتجه إلى الكاتب أو الفيلسوف حين يجده في اتجاهه الذي نشأ عليه بين أبيه وأمه ، فيختاره لأنه نهج من قبله في طريقه المرسوم .

وخير ما يقال في علة اغتياب هؤلاء الكتاب والمفكرين أنه شبيه باغتياب الإنسان حين يحل في بلد غريب ، فيعثر فيه على أناس يتكلمون بلسانه ، ويعرفون بلده ، ويذكرونه بوطنه الأصل .

فلم يعجب بأحد من كتاب أوربة في زمانه كما أعجب بتولستوى . . قرأ قصصه الكبيرة والصغيرة ، وكتب إليه ، واعتز بجوابه ، وأطلق اسمه على مزرعته التي أنشأها في أفريقية الجنوبية للرياضة الجسدية والروحية ، وكان يستشهد به في عظاته ومقالاته . فلم يجد مثلاً يذكره عند الكلام على تحريم التدخين غير مثل السكران الذي قال تولستوى في بعض أقاصيصه : أنه تردد عن الجرم وهو سكران ، ثم أقدم عليه بعد تدخين سيجارته ، وهو مستريح إليه .

ولكنه أحب تولستوى لتبشيريه بالمقاومة السلبية ، واجتناب العنف والثورة الدموية ، ولم تكن هذه المقاومة

إلا شعبة واحدة من شعب العقيدة التي شب عليها غاندى ،
وهى عقيدة « الهمسا » التي تقدمت الإشارة إليها .
كذلك أحب « ثورو » لأنه كان يوصى بالعصيان المدني
Civill-disobedience ويتنسك بين أحضان الطبيعة .

ولم يستحق « رسكن » إعجابه بما كتبه عن نقد الفنون ،
وشرح مذاهب التصوير ، ولكنه استحق منه هذا الإعجاب
بنزعه « النباتية » وإنجائه على الصناعات الكبرى ، لأنها تمسخ
الإنسان وترده إلى عداد الآلات في تفكيره وعمله .

وكانت حقوق الانسان وحقوق الأمم ، هى أهم ما استهواه
في ماتسيني زعيم النهضة الإيطالية .

وكان الإنحاء على « رأس المال ، شفيق كارل ماركس لديه
ولم يوافق في شيء غير هذا من دعوته إلى الثورة والانقلاب .
وكان يدرس « جون ستيوارت ميل » لأنه كان نبي الحرية
بين فلاسفة العصر الحديث ، ويقرأ « ماكولى » ، لأنه عاش
في الهند ، وتكلم عن تاريخها وعلق بعض التعليق على أدبها
القديم .

ولم تغنه قط مدرسة فكرية في بلاد الانجليز كما غنى بمدرسة
المتصوفين الروحانيين « Theosophists » لأنهم هم أنفسهم
يرجعون إلى كتب الهند ، ومراجع الشرق القديم .

ومن عجائب أطواره في التشقّف، أنّه دان بكتب الهند
الدينية ولم يطلع عليها في اللغة السنسكريتية ، فلما وصل إلى
انجلترا قرأ سفر « البهاجفاد » Bhagavad Gita في ترجمته
الانجليزية التي ترجمها السير « ادوين ارنولد » . وسماها بالقصة
السمّاءية The Story Celestial .

فالرجل لم يتكون « بمادة هذا الغذاء الذي أقبل عليه في
أوربة ، ولكنه أقبل عليه لأنه صاحب « قابلية مكونة »
تتغذى بما تشتهي ، وتختار لبنيتها ما يوافقها من الغذاء .

ويبدو لنا أن دروسه التي تخصص فيها لم تعطه من هذا
الغذاء غير ما أراد أن يأخذ منها .

فقد تخصص للتشريع والعلوم السياسية ، ولكنه أخذ
من هذه الدروس ما يوافقه في منحاها ورسالة حياته ، ولم يستفد
منه شيئاً في أعمال المعيشة أو خطط السياسة .

فقد تعلم ليكون محامياً في دور القضاء .
ولكنه لم يفلح في المحاماة ، وما كان ليستطيع أن
يفلح فيها .

لأنه أبى كل الإباء ، حين عاد إلى وطنه ، أن يستعين
بسماسة القضايا الذين كانوا عمدة المحامين الناشئين في

ترويح شهرتهم ، ولا يزالون كذلك إلى الآن .
وعز عليه في أول قضية قبل توكيلها أن يرهق المدعى
عليه بالأسئلة المخرجة ، فكان حرجه هو في المحكمة أشد من
حرج المدعى عليه .

وحدث في أفريقية الجنوبية أن صاحب قضية خدعه
عن حقيقة دعواه ، فأخفى عنه بعض الحقيقة وصور له بعضها
على غير صورتها . فلما اتضح له من مناقشة خصمه أمام
القضاء أن المدعى مبطل وأن المدعى عليه مظلوم ، نهض - في
كثير من الخجل - معترداً للمحكمة ، طالباً منها رفض
القضية ، لأنه علم من حقيقتها في تلك الساعة ما لم يكن يعلمه
حين قبل الوكالة فيها .

ولما سافر إلى أفريقية الجنوبية ، كان سفره بدعوة
من أبناء إقليمه الذين كانت لهم تجارة واسعة في عدة بلاد
منها ، وكان عمله أن يساعد كبار المحامين من الإنجليز في
بعض قضاياهم الكبرى ، فلم يسترح ضميره إلى هذه الخصومة
التي ظهر له أنها في غير طائل وفي غير موجب ، وأنها قابلة
للمصلح والتوفيق ، وجعل همه الأول أن يسعى في الصلح
بين الفريقين ، ولو كان في ذلك اقتضاب لطريقه إلى الشهرة
والانتفاع .

وأخذ على نفسه عهداً لا يطالبن أحداً بحق له من طريق
 المحاماة ، ولا يستخدم من هذه الصناعة لنفسه ، ولا يستخدمها
 لغيره إلا دفاعاً عن مظلوم أو حق مهضوم .
 وفوى ذلك أن هذا الرجل الذى لقبوه وصدقوا فى
 تلقيه : بالروح العظيم ، كان صاحب « روح » ناضج التكوين
 حين قرأ لثقافته ، وقرأ لصناعته على السواء . فلم يأخذ من
 تفكير عصره ، ولا من دروس صناعته ، إلا ما تطلبت
 « بنيته الروحية » ، وهى عالمة بما يصلح لها من غذاء ، ومن
 وسيلة قوة ونماء .

* * *

وكانما ختم غاندى مطالعته الأدبية باختتام عهده فى
 المطالعات المدرسية ، فلم يرو عنه أنه توفر على قراءة قصة
 أو كتاب من كتب الأدب بعد عودته من البلاد الانجليزية .
 وصرف اهتمامه كله إلى دراسة كتب الأديان والعقائد على
 اختلافها . فقرأ القرآن والأناجيل فى ترجماتها الانجليزية ،
 وقرأ كتب الديانة الصينية والديانة المجوسية فى تلك اللغة ،
 وقرأ طرفاً من علم المقابلة بين الأديان ، وانتهى منها على أن
 الديانات العظمى جميعاً موحاة من عند الله ، وأنه لاخير فى
 تحول المؤمن من دين إلى الدين ، وإنما تصلح البرهمنى

أو المسيحي أو المسلم بأن يجعله برهياً أحسن ، أو مسيحياً أحسن ، أو مسلماً أحسن . وذلك ميسور له مع البقاء على دينه ، مادام في دينه ما يوصيه بالحق والخير والصلاح والمودة لجميع الناس .

وقد لوحظ على غاندى أنه أغفل جانب الفن في عمله وفي وصاياه . فلم يشغل باله بالصور والتماثيل والشعر والموسيقى وغيرها من الفنون الجميلة ، واتفق مريدوه وناقده على هذه الملاحظة ، وسأله غير واحد من المريدين عنها فأجابهم بما أقنع بعضهم ولم يقنع الآخرين .

من هؤلاء طالب اسمه راماشندران Ramachandran قدمه إليه صديقه الانجليزى مستر « اندروز » ، فلزمه أياماً وجعل يناقشه ويستفسره في مضامين فلسفته واعتقاده . فكان جواب غاندى له حين سأله عن الجمال ما خواه : إن الأشياء حقيقة وظاهر ، وأنه لا يحفل بالظاهر ما لم تكن فيه دلالة على الحقيقة الباطنة .

قال الطالب : أليس في الفن تعبير عن قلق النفس وجيشانها بالحس في كلمات وألوان وأشكال ؟
قال غاندى : ولكن أصحاب هذه الفنون لا يحفلون كثيراً بعمل الروح .

وسأله الطالب مثالا ، فمثل له بفن أوسكار وايلد ، لأن
قضيته وكتبه كانت حديث الناس في أيام مقام غاندى بالبلاد
الانجليزية .

قال الطالب : لقد زعموا أنه أعظم فنان بين أدباء زمانه .
قال غاندى : نعم . « إنما كان وايلد يرى الفن الأعلى في
الصورة الظاهرة ، ولهذا نجح في تجميل الرذيلة ، وكل فن حق
فن الواجب أن يعين الروح على تحقيق جوهرها الأصيل ،
وأنتى فيما يخصنى أرى أنتى أستطيع أن أصرف النظر عن جميع
المظاهر في تحقيق لجوهر روحى . وأستطيع أن أدعى أن فى
حياتى ما يكفى من الفن ، وإن كنت لا ترى حولى ماتسميه
آيات فنية ، .

قال الطالب : إنهم يجدون الحق فى الجمال .
قال غاندى : بل أخرى أن نجد الجمال فى الحق .
فسأله الطالب : ألا يمكن الفصل بين الاثنين ؟
فأجابه غاندى سائلا : أترى كل امرأة وضاحية الملامح
جميلة ، ولو كانت تنطوى على نفس خبيثة ؟
فقال الطالب : إن الفنان فى هذه الحالة يودع بين طيات
ملاحظتها ما ينم على خبيث نفسها .
قال غاندى : إذن نرجع إلى الباطن فى تحقيق معنى الجمال .

أو نرجع إلى أن الملاح الظاهرة ليست هي الجمال .
وعاد الطالب يسأله : كيف نفهم إذن أن كثيراً من
الآيات الفنية الجميلة قد خلقها أناس لم يكونوا على خلق جميل .
فقال غاندى : كل ما يفهم من هذا أن الحق ونقيضه
قد يتجاوزان ، وانهما لا ينفصلان في جميع الأحوال .
وختم هذا الحوار قائلاً : لا يكون شيء من الأشياء
جميلاً إلا بمقدار دلالاته على خالقه ، والا فكيف بغير ذلك
يوصف بالجمال .

وبدا على الطالب أن المهاتما أقنعه برأيه ، فتمنى لو أنه
يكتب في نقد الفنون على هذا الأسلوب ، فاعتذر « المهاتما »
لأنه لا يحسب نفسه من ذوى الاختصاص في نقد أعمال
الفنانين ...

وهذه ولا شك وجهة نظر ناسك ، معرض ، عن فضول
العيش وزخارف الأشياء ، ولكنها مع هذا وجهة نظر
يأخذ بها كثير من الكتاب الفلاسفة الذين يرفعون أعمال
الفن إلى الذروة العليا بين شواغل الإنسان في كل زمان ، ومنهم
أروين ادمان Irwin Edman الذي يقول في كتابه مسألة
الفلاسفة Philosophers Quest : « إن هذه اليقظة للسكون
كله — للصورة والنخمة — هي غاية كل من يسمون إلى اليقظة

السكاملة . ولا بد لهم — إذا أرادوا أن يبلغوا هذه الغاية — من أن يذهبوا وراء الفنون ووراء الفلسفة ، وإن ذهبوا إلى هذه الغاية من طريق الفلسفة نفسها . إلا أنهم لا ينبغي أن يقفوا عند خطوات النقاش والبحث والتفكير ، بل عليهم أن يذهبوا وراء الكشف والرؤية . ليروا ثمة أن الكون كله يصبح أمامهم كأنه الصورة أو اللحن في نظر الناظر وسمع السامع المستغرق في الرؤية والسماع . هنالك يبدو كل شيء واضحاً في سره وعجبه ، وينظر الشاب الذي راض روحه هذه الرياضة فإذا هو ناظر بكل ما فيه من قوى الروح التي استولى عليها هذا الشعور ، وإذا هو في يقظته قد تخلص من نفسه مضحياً مفادياً لمتيزج بما وعاه .

ومهما يكن من حكم النقد الفني على هذه النظرة ، فإن هذا النقد لا ينبغي — ولا يستطيع أن ينق — أن المرء قد ينظر هذه النظرة إلى الفنون ولا يحرم حظ المتعة بجانب من جوانب الجمال . وقد كان غاندى على التحقيق يستمتع من الجمال بكل طيب بسيط ، فكان يطرب للأناشيد الروحية ، ويتبجح برقص الأطفال ، ويهش لرؤية الأزهار والمروج ، وكان أسلوبه الكتابي نفسه أسلوباً رائعاً صافياً لا يخلو من نغم وجمال وإن خلا من كل تنميق ، وقد اعتبر الموسيقى

عاملا من عوامل التربية القومية ولا سيما رياضة الجماهير . . .
لأن الجماهير تحتاج إلى النظام والأنعام نسق ينهى عن
الفوضى ، وأسف لأن الموسيقى في الهند نعمة مقصورة على
الخاصة ، وقال غير مرة أنه يود لو استطاع أن يفرض
تعليمها فرضاً وأن يشترط في جميع المؤتمرات الكبرى أن
يحضرها كبار الموسيقيين .

ولا خفاء بعد هذا كله في مكان الفنون عند غاندى
بالنسبة إلى الصناعات . فإن نصيب الصناعات من عنايته كان
أوفر جداً من نصيب الفنون .

ولسكننا خلقاء أن نفرق هنا بين نوعين من الصناعات
على حسب الآلات التي تستخدم فيها .

فالصناعات التي يُسخر فيها الإنسان للآلة شر على ملكات
الروح .

والصناعات التي تُسخر فيها الآلة للإنسان خير للملكات
الروح .

تلك تجعل الإنسان عبداً للآلة ، وهذه تجعله سيداً للآلة
وسيداً لنفسه ، وهذه هي تربية الروح وتربية الجسم وسبيل
الاستغناء .

وكل شر في العصر الحديث ، على رأى غاندى ، فهو

راجع إلى تلك الآلات التي حولت الانسان إلى آلة معلقة بها ، وزادت حاجاته فزادت أعماله ، وزادت - تبعاً لذلك - هذه العبودية للصناعة والمصنوعات .

وكل خلاص من هذا الشر فإنما سبيله وضع الآلة في موضعها ، وهى أن تصبح فى يد الانسان ، فلا يعمل يومئذ أكثر مما يحتاج إليه .

لهذا قرر فى برنامج تعليمه أن تكون الصناعة اليدوية درساً إلزامياً لكل تلميذ فى كل مرحلة من مراحل الدراسة ، وأخذت حكومة الهند الوطنية برأيه فى برامجها الحديثة .

وهذه البرامج ، فى رأى غاندى ، هى فى وقت واحد تربية روحية وحل لمشكلة من أعصى مشكلات الاجتماع فى الحضارة العصرية .

وليس هذا الرأى بخلو من الصواب .

لأن الحقيقة المتفق عليها أن حس الانسان وعقله قد استفادا من مرانته على الصناعات اليدوية ، ويقول بعض علماء النفس المحدثين أن نمو الخلايا الصفراء فى الدماغ قد نشأ من استخدام الانسان لأصابعه وإبهامه ، وقد وافق غاندى على اعتقاده فى شروق الصناعات الكبرى قائد عسكري من نقاد التاريخ : هو الجنرال فلر Fuller صاحب كتاب النسلح والتاريخ

فقال في كتابه هذا : « إن الحرب وباء كامن في الحضارة الأوربية ، لأنها تدرر في حلقة مفرغة من الحرب والصناعة ... فإن القوى الآلية تؤدي إلى البطالة ، والبطالة تزيد في نزعة الخصومة ، ونزعة الخصومة تتطلب عدواً تخاصمه ، والسياسة تدبر لها ذلك العدو ، فتأتي الحرب من ثم وتعالج مشكلة البطالة إلى حين » .

إلا أن الثقافة التي زاولها غاندى لا تقاس في جوهرها بمقياس الصواب والخطأ ، ولا بمقياس العلم والجهل في عرف زمانه ، ولكننا نقاس على حقيقتها بمقياس المبدأ الذي يغلبه على جميع المبادئ ، والأصل الذي يقدمه على جميع الأصول عند نظره إلى صلاح الانسان الذي يقاس بمقياس الدوام فوق عوارض الزمن وعوارض الدول والجماعات .
فقد كان هذا الرجل يعلم كل شيء يحتاج إليه في رسالته ولم يكن يجهل شيئاً يدخل في حسابه .

فإذا قاوم المخترعات الحديثة ، أو قاوم العلم الحديث ، أو قاوم الطب الذي تشفى به الأجسام ، فهو لا يفعل ذلك كما يفعله أصحاب الخرافة والجمود ، إذ أنه يعلم ما يجهله الخرافيون الجامدون ، ولا يصدر في رأيه عن جهل بما فاتهم أن يعلموه .

ولسكنه يقاوم ما يقاومه وهو عارف بقيمته كما يعرفها
معارضوه. إنما يعرف هذه القيمة ويعرف ما هو أعلى وأدوم
منها في اعتقاده ، وهي سلامة الروح.

فما سلمت به الروح فهو معرفة كافية .

وما عطبت به الروح فهو جهل منكر ، أو علم عارض
لا ينكر نفعه ولا ينكر ضرره ، وهو أكبر وأبقى ، وإن
سلمت به الأجسام .

غاندى وكبيل الجريد

كثيراً ما تسكون موازين الشعوب أصدق من موازين المؤرخين في تقرير مكان العظيم بين أبناء قومه ، ولا سيما حين تطيع تلك البداة في تعبيراتها الفطرية التي تجمع الكثير من المعاني في القليل من الكلمات .

وقد عرفت بداة الهند أين تضع غاندى من أمته ، فلم تضعه موضع الزعامة السياسية ، ولا موضع القيادة الاجتماعية ولكنها وضعت موضع الأبوة المحبوبة الموقرة ، التي يحق لها أن تطاع وينتظر منها أن تغتفر بعض العصيان ، بدالة الأبناء على الآباء .

لم تنظر إليه نظرتها إلى الزعيم السياسى ، لأن السياسة لم تكن له غاية ولم يكن لها المقام الأول في سعيه ورأيه . ولم تنظر إليه نظرتها إلى القائد الاجتماعى ، لأن القيادة الاجتماعية في أكثر الأحيان قيادة حركة أو إرشاد في مرحلة من مراحل التطور ، ولم يكن غاندى قائد حركة ، أو دليل مرحلة تنتهى إلى غرض محدود .

بل هى لم تنظر إليه كأنه داعية نهضة ، لأن النهضة كثيرأ

ما تتعلق بجيل واحد هو الجيل الناشئ أو الجيل الناهض ،
وترمى إلى تبديل لا يلبث أن يتلوه تبديل .
إنما نظرت إليه كأنه ، أبوها ، المرموق بعين البر
والإجلال ، وكانت تدعوه بهذه الدعوة المستحبة : بابو جى .
أى يا أبتاه .

وقد كان كبار القوم وصغارهم ينادونه بهذا النداء ، ومنهم
من هو فى سنه ، ومن هو أسن منه ، لأنه تمثل لهم فى صورة
وطنهم الروحانى الخالد ، أو فى صورة الأبوة القومية
Fatherland التى لا تقاس بأعمار الآحاد .

ولم تكن له من ثمة رسالة خاصة إلى الجيل الجديد ،
لأن أقدم الأجيال وأحدث الأجيال فى رسالته الروحانية
يستويان .

فكانت ناشئة الهند تحبه ، وتجله ، وتثق به ، وتستحى من
إغضابه . وكانت لقداسته مكانة خاصة بينهم ، لأنه قدیس صنع
نفسه ولم تصنعه المسوح والمحاريب : تعلم كما تعلموا ، وكان فى
وسعه أن يطمح إلى مظاهر الدنيا كما يطمحون إليها . فبينه وبينهم
قاربة لا يشعرون بها فيما بينهم وبين أحبار الدين الذين سيقوا
إلى القداسة بحكم الصناعة ، وله عندهم مكانة العقيدة التى
يعتقدونها ومزية النشأة العصرية التى نشأوا عليها وكرامة

« الهندي ، الذي جعلهم يفخرون بالهند بين الأمم ، وجعل للروحانية محلا مرعياً بين مذاهب العصر الحديث . ولكنهم — على ما نظن — كانوا يحارون في أمره كما كان يحار فيه كل من سمعوا بدعوته ، ولا يرون أنه يدعوهم إلى خطة يمكن العمل بها في مجال السياسة أو مجال العيش أو مجال الأخلاق . ومنهم من كان يصارحه القول في هذا ، ولا يمنعه الحب والتوقير أن يكتب إليه « أنه لا يحسبه يفهم مايجول في خواطر الشباب » .

وكانت وصاياها في مسألة النزعات الجنسية أعسر شيء على الشباب أن يستجيبوا إليه بطبيعة الحال . فلما أكثر من الكتابة في ضبط هذه النزعات وأوصى الأزواج من الشبان والشابات مرة بعد مرة أن يمتنعوا عن العلاقة الجنسية لغير النسل ، كتب إليه أحدهم يقول : « إنني أقرأ ما تكتب فيخامرني الشك في فهمك للعقل الناشئ ، فإن ما استطعته أنت ليس من الضروري أن يستطيعه جميع الشبان . وإنني لمتزوج وقادر على ضبط نفسي ، ولكن زوجتي ليست مثلي ، وهي كذلك لا تريد الآن أطفالا . وتريد أن تعطى نفسها حظها ، فماذا ترى أن أصنع .. أليس من واجبي أن أرضيها ؟ » ،
والواقع أن العظماء من أبناء جيل قد يفوتهم أن يفهموا

الجيل الذى ينشأ بعد زمانهم . ولكن المسألة هنا ليست مسألة جيل قديم وجيل جديد ، لأن النزعات الجنسية غير مجهولة فى جيل من الأجيال أو أمة من الأمم . ولو أن غاندى قال ما قاله عن النزعات الجنسية قبل ألف سنة لكان موقفه من أبناء ذلك الزمان كموقفه من أبناء زمانه ، وهو يعلم ذلك ولا يجهره . وقد أجاب الطالب الذى وجه إليه ذلك الخطاب بما فى هذا المعنى . ثم قال له : إن ضبط النفس لا يعنى أن تكف عن العمل الجنى وحده ، وإنما يعنى الكف عن الإغراء وعن التغذية المثيرة وعن الملامسات الذهنية والحسية كما يعنى القدرة على تحويل الغريزة إلى وجهة غير وجهتها الجسدية بما يشغل النفس من شواغل العطف والفكر والمحاسن الروحانية . ولكنه إقناع لا يخفق مع سامعيه لضعف فى الحجة أو نقص فى البيان ، بل لقوة فى الغريزة ، ورغبة عن الاقتناع .

كذلك كانت وصايا غاندى بالمسالمة فى وجه كل عدوان تتجاوز طاقة الاحتمال . فإن الجيل الجديد كان يصغى إليها ، وكان لا يكفر ، بالاهمسا ، التى تلقاها مع موروثاته من مئات السنين ، بل ألوف السنين ، ولكنه كان يتكلف عنتاً حين يتكلف كظم الفتوة التى تغلى فى دمه ، وكان يستحى أن

يغضب « المهاتما ، إذا نوى الصيام احتجاجاً على أعمال العنف والمقاومة الدموية ، فيمسك عن المقاومة إلى حين ، وهو يعلم أن المهاتما يكلفه ما لا يطيق .

إلا أن غاندى مع هذا لم يهبط فى نظرهم ، بل ارتفع إلى مقام الآلهة والأنبياء ، فجعلوا وصاياه من قبيل وصاياهم ، وجعلوا عصيانهم لها مسكرهين من قبيل عصيانهم للوصايا الإلهية حين تقصر عنها طاقة البشر ، وإن كانت عندهم أهلا للإيمان ، وأهلا للاتباع .

ومن الأمور التى لها دلالتها فى هذا الصدد أن غاندى مات بيد شاب جاوز الثلاثين ، فكان هذا أعنف اصطدام بينه وبين مخالفه ، ولكنه لم يكن اصطداماً بينه وبين شاب من أنصار التقدم أو أعداء القديم ، بل كان اصطداماً بينه وبين شاب يتعصب للقديم ولا يقبل التسامح فيه .

ومن هنا يبدو لنا محور المشكلة فى دعوة غاندى أو محور الصعوبة فى مجازاة هذه الدعوة . فليست هى مشكلة الصراع بين عقل قديم وعقل حديث ، ولكنها هى المشكلة الأبدية التى لا تزال قائمة مع كل إصلاح ، ونعنى بها مشكلة التغلب على الطبيعة البشرية ، أيأ كان تفكير المصلح أو تفكير المخالف ... وهى معركة باقية لا تتغير فى العسر أو اليسر بين جيل وجيل .

... والمرأة

يقول الذين يعتقدون تناسخ الأرواح من الهنود ، إن الذى يلد يولد ، وإن الإنسان يعود إلى عالم الجسد مادام يلد الأبناء ويخرجهم في عالم الجسد . وإنما ينفصل من المادة ، ويتصل بعالم الروح ، ويفلت من سلسلة الولادة المتجددة ، بعد انقطاعه عن كل صلة جنسية ، وقيامه بفروض النسك والتبتل .

فولادة النسل عمل يحزى عليه الإنسان بالعودة إلى الولادة . ويستوى في هذا الجزاء الرجل والمرأة . فليس في الديانة الهندية لعنة خاصة بالمرأة في الإغراء على الخطيئة . ولهذا يندبون الذكور والإناث إلى ضرب من الزواج تنقطع فيه العلاقة الجسدية بين الزوجين ، وتقوم الصلة فيه بينهما على العلاقة الروحية دون غيرها . فكانت هذه الروحانية أشد على المرأة الهندية من لعنة الخطيئة التي لاحقها في الديانات الأخرى . لأنها أنشأت في الهند زواج الأطفال ، وأنشأت فيها عادة إحراق الأياشي مع أزواجهن ، ثم منعت الحكومة الإنجليزية

إحراق الأياى فاستبدل به التأيم وتحريم زواج المرأة بعد موت زوجها الأول مدى الحياة .

ويتفق أن يموت الزوج وهو فى العاشرة أو دون العاشرة .
لأنهم قد يعقدون الزواج بين الطفل والطفلة فى السنة الأولى من عمرهما ، ولا ينذر ذلك بالنسبة إلى زواج الكبار . فإن نسبة الأطفال الذين عقد زواجهم قبل تمام السنة الأولى من عمرهم قد بلغ ثمانية فى المائة خلال سنة ١٩٣١ ، وبلغ عدد الأياى فى هذه السن أكثر من ألف وخمسمائة ، وبلغ عدد الأياى من تجاوزن الثالثة ولم يتجاوزن الرابعة أكثر من تسعة آلاف .

فتولد البنت ثم تتأيم قبل أن تبلغ مبلغ النساء ، وتظل أياى إلى أن تموت ، وهى حرام على غير زوجها الأول . لأن لها روحاً واحداً ، وهى بهذا الروح لا تنفك عن روح ذلك الزوج .

وكان غاندى مؤمناً بتناسخ الأرواح أقوى الإيمان . حتى لقد كتب مرة أن تناسخ الأرواح عنده أكثر من عقيدة ، لأنه حقيقة واقعة كهذه الشمس الطالعة .

وكان كذلك يؤمن بوجود الانقطاع عن علاقات الجسد لبلوغ « الموكشا » أو الخلاص .

ولكنه كان ينكر زواج الطفولة ، كما ينكر تأييم
الأطفال ، وكان له عمل مشكور في إصلاح الزواج وإبطال
عادة التأييم . بل كان يوصي الشبان باختيار زوجاتهم من
بين المتأيمات خاصة ، لأنهن لا يحسنن متزوجات بأى
حسبان صحيح .

وقد ثار عليه أنصار القديم أعنف ثورة حين تصدى
لإبطال هذه العادة وأعلن نصيحته للشبان بالزواج من البنات
المتأيمات . كان هؤلاء الجامدون يطبقون أن يبطلوا هذه
العادة عملاً ، ولكنهم لا يطبقون أن يقدح فيها زعيم من
زعمائهم علانية كأنها سخف لا يجوز اعتقاده ولا يجوز اتباعه .
إلا أنه لم يحفل بشورتهم عليه . لأنه كان على ثقة من أن هذه
العادة التى تصدى لإبطالها ليست من الدين وليست من العقل
ولا من الخلاق الإنسانية .

كان ينكر أصلاً أن إحراق الأرملة على جثة زوجها
قد أمر به الدين البرهمى فى كتاب من كتبه المعول عليها .
وكان يقول أنه لو صح أن إحراق الأرملة على جثة زوجها
واجب لاتصال روحيهما ، لوجب مثله إحراق الزوج على جثة
امرأته المتوفاة ، وأن إحراق إنسان حى لا يجي أحداً بل
يزيد فى عداد الأموات .

وكان يقول إن الرهبانية المقصودة هي رهبانية من يغالب غواية الجنس ويقوى على مغالبتها ، فلا رهبانية للطفل ولا للطفلة قبل بلوغهما مبلغ الرجال والنساء .

أما الزواج عامة فهو فيه وسط بين المنع والأباحة . فلا ضير من العلاقة الزوجية ولا موجب للخجل منها ، ولكن بمسوغ واحد : وهو طلب النسل لاطلب المتعة الجسدية . وقد سأله بعضهم عن المعقبات لمنع النسل في بعض الحالات التي يتق فيها الوالدان كثرة البنين والبنات ، فحرمها كل التحريم ، وقال إن اتصال الزوج بزوجة لمحض اللذة لاجبة له أقوى من حجة الشذوذ الجنسي البغيض ، ولا مسوغ له أشرف من مسوغ المتعة الجنسية التي يجدها شواذ النساء ، وشواذ الرجال .

أما الموكشا ، أو انطلاق الروح من جميع الشهوات الجنسية فهو الكمال الذي يتوخاه من يطيقه ، ولكنه لا يفرض على جميع الناس .

سأله الطالب رامشاندران — وهو من تلاميذ صديقه الإنجليزى مستر اندروز — لماذا يبشر بالموكشا ؟ فقال : لأن الزواج فى غنى عن التبشير . حسبته دافع الغريزة داعياً إليه .

قال الطالب : أليس في ذلك خطر من انقراض النوع
الإنساني ؟

قال : كلا . بل في ذلك تصفية النوع الإنساني وتهذيبه .
قال الطالب : أليس من واجب العبقري أن يعقب
عقبياً مثله ؟

قال : إن عبقريته تعقب له أبناء أكثر مما يستطيع
أن يلد .

وسئل مرات عن الطلاق كما سئل مرات عن الزواج .
فكان يأتي تيسير أسباب الطلاق ، ويقول إنه لا يحل مشكلة
الزوجين . فإن المرأة التي لا تجد من زوجها حسن المعاملة
لا تنتفع بالطلاق ، ولعلها لا تجسر على طلبه . وإنما يأتي حسن
المعاملة من معرفة المرأة بحقوقها وتعليمها الواجب لها
والواجب عليها ، وعندئذ تقل الحاجة إلى الطلاق أو تصبح
الحالة في المجتمع خيراً من إكثار المطلقين والمطلقات فيه
لجهل الزوجين بما بينهما من الحقوق والواجبات ، وكأنه
كان يرى - وكان على حق فيما يرى - أن الهند تنتقل في حياتها
الاجتماعية نقلة طافرة لوتحولت من زواج أبدي ينتهي
بإحراق الزوجين على كومة واحدة ، إلى زواج يباح فيه
الطلاق لأهون الأسباب .

ويطرد مع هذا الرأي أن يشجع غاندى كل حركة تساعد المرأة على الاستقلال والكرامة . وهكذا كان فى مسألة « حق الملكية » . . . فإنها كانت مثار خلاف بين الهنود عند البحث فى تقرير حقوق النساء المدنية والسياسية . فكان الأكثرون منهم يتوجسون من إباحة حق الملكية للمرأة لأنه يغريها بالنشوز وقلة الاكثراث لمرضاة زوجها عنها . وكان غاندى على خلاف هذا رأى يبيح الملكية للمرأة كما يبيحها للرجل ، ويسأل معارضيه : هل أفسد حق الملكية أخلاق الرجال وعلمهم قلة الاكثراث لمرضاة الزوجات ؟ إذن ليكن شأن النساء كشأن الرجال . فلا قيمة للأخلاق التى تبنى على عجز إنسان من الناس عن الاستقلال برأيه ورزقه ، وليست الأخلاق أخلاقاً إلا إذا جاءت من محض الاختيار ووحى الضمير .

على أنه لم يكن يستحسن للمرأة أن تتعلم لتعمل فى كسب المعيشة وتتمرس بأعباء التجارة ومغامرات السوق ، ويؤثر لها العمل فى البيت على كل عمل فى معترك الحياة .

وكان يوجس شراً من الحرية التى تبيح العبث واللعب بالعاطفة . وكتب مرة يقول : أخشى أن يكون من هوى البنات العصرية أن تلعب لعبة جوليت مع ستة « روميها » ،

في وقت واحد ، وذاك من فاقة النفس لا من حرية الإرادة واستقلال الشعور .

وقد واجهته مشكلة النسوة الشقيات اللواتي احترفن البغاء بمعضلة مضنية . فإنهن يتجاوزن على حسب تقديره خمسة ملايين امرأة في أرجاء الهند كلها ، قياساً على عددهن في بلدين زارهن فيهما . وهما : كوكوناذا وباريسال ، فنهن من أربت على الثلاثين ومنهن من لم تبلغ الثانية عشرة ، وكلهن لا يطمعن في الزواج ولا يجدن من يقبلهن زوجات إذا طمعن فيه . فكان يواسى من يلقاهن منهن ويدعوهن بالآخوات ، وكان يدبر لهن وسائل الاشتغال بصناعة النسيج ، ويوصى القائمين بمقاطعة البضائع الانجليزية بتفضيل منسوجاتهن لإغنائهن عن التبذل في سبيل كسب العيش ، وإحياء كرامتهن بالمساهمة في هذه الحركة القومية ، ورحض عار الدنس والمهانة عن نفوسهن .

وكان بوده أن يلقي العبء الأكبر في مهمة إصلاح هؤلاء البائسات على حرائر الهند ينشئن لهن الملاجىء ويهيئن لهن الخدمة الصالحة في البيوت ، فحالت التقاليد بين حرائر النساء وبين النجاح في هذه المهمة . ورأى غاندى أن يجدهن لقضية من قضايا الهند الاجتماعية لا تقل عن قضية المرأة المنبوذة : وهى قضية الطائفة الكبيرة التى عرفت فى الهند باسم

المنبوذين أو الأنجاس ، وهم أحق الناس أن ينتفعوا بعطف المرأة عليهم فيما ضرب عليهم من الذلة والشقاء .

قال في خطاب ألقاه على نخبة من السيدات والفتيات :
 « إنه لمن الفواجع أن الديانة في زماننا هذا أصبحت لا تعنى شيئاً غير الامتناع عن بعض الطعام والشراب ، أو الترفع عن بعض الطبقات . ولن تكون هناك غباوة أغلظ من هذه الغباوة . فإن الموالد ومراسم التقاليد لن يناف بها رجحان للبر أو نقصان ، وإنما مناط ذلك كله الأخلاق ، وما خلق الله الناس وعليهم علامة الرفعة والدناءة . وما من كتاب يدمغ إنساناً بالخسة أو النجاسة منذ مولده يستحق منا الرعاية والاحترام . إنه ليجدد الله ويجدد الحق الذي هو الله . وما كان الله وهو الحق والصدق والعدل ليرضى عن ديانة تنظر إلى خمس أبناء هذه البلاد كأنهم أنجاس لا يجوز مسهم . . . وإني لأريد منكن أن تبرئن أنفسكن من هذه الشناعة البالغة فالنجاسة التي تأتي من العمل النجس موجودة . ولا بد أن تقترن بكل عمل نجس وتلحق بكل أحد منا ينغمس فيها . ثم تفارقنا حين نغسل أنفسنا من الضر والوضر ، فلا تلزمنا النجاسة ، ولكنه ما من عمل أو مسلك يدمغ رجلاً أو امرأة بالنجاسة أبد الأبدن . »

ومن ثقته بذخيرة العطف في نفس المرأة أنه كان يعول عليها في معركته الكبرى ، وهي معركة « الالهسا » أو مقاومة العنف بالصفح والإحسان .

كان يعول على نساء الهند في الهند وعلى نساء العالم كله في العالم كله . لأن المرأة في كل مكان هي رمز التضحية ومثال الغفران والاحتمال ، وهي في معركة « الالهسا » تصنع ما يصنعه الرجل وتزيد ، ولكنها في معركة العنف لن تزال هي الجنس المغلوب .

فلما عرج على إيطاليا في طريق عودته من إنجلترا سأله السيدات الإيطاليات كلبه هن فقال هن — وإيطاليا يومئذ في ظل الحكومة الفاشية — : « إنكن تستطعن ما لا يستطيعه الرجال من محاربة العسكرية ، قلن لأنفسكن ماذا يصنع قادتكن وجنودكن إذا كان نساؤهم وأمهاتهن وبناتهن يأبين أن يشتركا في الأعمال العسكرية » .

وقال للسيدات في لوزان حين سأله أن يدلهن على درس يتعلمنه من المرأة الهندية : تعلمن منها الالهسا . . . فإن أوربة إذا « شربت » هذا الدرس فإنما تتناوله من أيدي بناتها .

وجملة القول إن علاقة هذا الرجل بالجنس الآخر لم

تسكن إلا علاقة قائد جيش يوجه فرقة منه إلى الحملة التي
تقدر عليها في معركته الكبرى ، وهي معركة السلام .
ولم تعرف الدنيا له علاقة بالنساء عامة غير هذه العلاقة .
ولكن الدنيا كانت خليفة ألا تعرفه على الاطلاق من
جاء المرأة ، أو كانت خليفة أن تعرفه في صورة أخرى
أبعد ما تكون عن صورة القداسة : صورة زير نساء ،
أو فتى من فتيان الأندية والسهرات .
فإن القديس لم يولد قديساً . وتلك مفخرة من مفاخره ،
لأن قداسه كلفته شيئاً عسيراً من مغالبة نزعاته ، ولم يجدها
حين أرادها سهلة ميسرة على طرف الثمام .
كان للمرأة هوى شديد في نفسه .
وكان لا يطيق الابتعاد عن زوجه في السنين الأولى من
اقتارانه بها ، فكان مرض أبيه — على إعزازه لأبيه —
لا يحول بينه وبين الإسراع إلى مخدعها كلها سنحت له
الفرصة من غفوة المريض أو استغنائه عن ملازمته . وخرج
مرة من حجرة المريض على عادته ، فجاءه النبأ بعد هنيهة بأن
أباه قد مات .
وظل حياته كلها يقرع نفسه على هذا العقوق ، أو هذا
التهافت على الشهوات .

وهم أربع مرات أو خمسا بمقاربة نساء غير زوجه ،
ولكنه لم يسترسل في نزواته هذه لمصادفات عاقته ، كما قال في
ترجمة حياته ، ولعله من تواضعه يحيل الأمر إلى المصادفة
ولا يحيله إلى قوة العفة في طبعه .

وغاندى ، ولا شك ، مثل من أندر الأمثلة على قوة المناعة
التي يكسبها الإنسان من التربية الدينية والنشأة المنزلية في
مقاومة الشهوات الجنسية وغيرها .

وربما أعانت على ذلك طبيعة فيه عرف بها في جميع أطوار
حياته من صباه إلى شيخوخته ، فإنه خلق مطبوعاً على الحب
الشامل الذي لا يميز أحداً عن أحد ، ولم يخلق لاختصاص
أحد بحبه وهواه ، من الرجال أو النساء . فلم يكن له صديق
واحد مفرد بحبه وتميزه ، وكتب هو في ترجمة حياته فانتقد
هذا النوع من الأثرة بالصدقة ، وقال عنه : أنه لا يؤدي
إلى خير .

ومع هذا كان في هذا الرجل فتنة خاصة لبعض النساء .
فكأن يهجرن الدنيا ليلتحقن به في صومعته ويعشن إلى جانبه
عيشة الفاقة والشظف .

لا جرم أن الرجل القوي يظل فتنة للمرأة ولو كانت قوته
في ترك المرأة .

ترى هل كانت امرأة من النساء تظفر بالمعجبات اللاتي يهجرن الحياة من أجلها لو نسكت مثل هذا النسك وتقصفت مثل هذا التقشف ؟ إنهن إن أقبلن عليها أقبلن على كل حال مشتركات في مواساة واحدة ، ولم يقبلن مقدسات ولا معجبات .

ومن النساء اللواتي كن يلذن به فتيات غير هنديات . منهن انجليزيات وأمريكيات ، جذبن إليه شعور قلق نحو الحضارة الغربية ، وإيمان صادق بأنه معطين من سلام الروح مالا يأخذنه من تلك الحضارة التي أوشكت أن تفلس ، فلا تقوى على إعطاء .

وكانت أعظم عبقرية نسائية أخرجتها الهند — وهي الشاعرة : نايدو — تؤمن به ، وتخلص له ، وتصمد إلى جانبه حين يتخلى عنه المعارضون لسياسته السلبية في أوقات السخط والهياج ، ولم تحذله قط في وقت من الأوقات .

سيا

إذا قلنا أن غاندى لم يكن سياسياً فنحن لا نريد بذلك أنه كان دون السياسيين فى ملكات عقله ، ولا أنه كان مفتقراً إلى الدهاء الذى تقوم عليه السياسة . فإنه لم يكن خلواً من الدهاء ، ولم يكن مقصراً عن الساسة فى ملكات العقل والسليقة . ولكنه لم يكن سياسياً لأنه كان يعمل فى سياسة قومه بأسلوب غير أساليب الساسة ، بل غير أساليب الدعاة الشيعيين فى أكثر الأحيان .

كان يعمل فى السياسة بأساليب القديسين . وكانت « الاهمسا » أو المقاومة السلبية رأس ماله فى كل خطة يواجه بها قومه ، أو يواجه بها الدولة البريطانية ، أو يواجه بها كائناً من كان بمن يخشى منهم خطر على بلاده .

كان الخطر اليابانى محدقاً بالهند بعد جلاء الجيوش البريطانية عن سنغافورة وبرما وبلاد الملايو فى إبان الحرب العالمية الثانية ، وكان هو يعلن الإنجليز بوجود الجلاء عن جميع البلاد الهندية قبل توقف القتال ، فلما سأله مراسلو الصحف الأجنبية عن الخطر اليابانى قال : إننا نواجه هذا



نهر و رئيس الحكومة الهندية يصتق الى غاندي

الخطر بالمقاومة السلبية ، كما واجهنا بها سلطان الدولة البريطانية . ولم يكن هذا رأى نهرو وزملائه من أصحاب الرأى فى المؤتمر الهندى ، لأنهم كانوا على استعداد لمواجهة الخطر اليابانى بالمقاومة العسكرية ، وكانوا على استعداد للموافقة على إبقاء فرق من جيوش الحلفاء فى الهند للاشتراك فى الدفاع عنها . ولم يرفض غاندى كل الرفض أن تبقى الجيوش لهذا الغرض دون غيره . ولكنه كان يؤمن بالمقاومة السلبية فوق إيمانه بالقوة العسكرية . وكان يقول لأبناء وطنه وللأجانب المتحدثين إليه : « إننى أومن - سواء صدق الناس أو لم يصدقوا - أنه كلما كان العمل عملا من أعمال ترك العنف أو المقاومة السلبية فالعامل الحاسم فى هذا الموقف ، هو الله »

فإذا أغار اليابانيون على الهند فكل ما يطلب من أهلها لدفع خطرهم هو الكف عن مقابلة العنف بالعنف والسكف عن التعاون معهم فى حكم البلاد ، وهذه - فى رأى غاندى - مقاومة كافية لتحقيق الغرض منها ، وهو فل سلاح العدوان وتعويق المعتدى عن بلوغ مقصده من عدوانه . فإن بقى بعد ذلك عمل لازم لسكبج جماح المعتدى فما بقى بعد ذلك فهو من عمل الله .

ومتى كانت « الالهسا » هى رائد السياسى فى مقاومته ،

فلا عليه أن يحدث من جرائها ما عسى أن يحدث من شدة
 وضرر. فإنما الحرام هو إيقاع الضرر عمداً وإيقاعه من
 طريق العنف والسورة الغضبية. فإذا جاء الضرر من غير هذه
 الطريق فلا جناح عليه ولا حيلة له في منعه ، لأنه لا يستطيع
 أن يمنع لو شاء .

زار البلاد الانجليزية للتشاور في القضية الهندية ، فأخذوه
 إلى مساكن العمال المتعطلين وأشهدوه ما فيها من بؤس وفاقة ،
 وأحبوا أن يقنعوه من حيث يقتنع إذ طرخوا فكره من باب
 الرحمة والتورع عن إيذاء الأبرياء . فقالوا له : إن هذا البؤس
 الذي يراه أثر من آثار سياسته التي يدعو إليها ، وهي مقاطعة
 البضائع الانجليزية وتعويل أهل الهند على ما يصنعونه بأيديهم
 من الكساء ومطالب المعيشة .

فبدا عليه أسف شديد ، ولكنه قال أنه لا يستطيع أن
 يعدل عن دعوته ، وأن في الهند من ألوان البؤس والفاقة
 ما هو أنسكأ للنفس بما رآه .

ولم يكن هذا الاصرار عجيباً من قديس الرحمة والمحبة بين
 الناس . فإنما كان شأنه في هذا كشأن الطبيب الذي ينهى
 الناس عن التخمرة والإفراط في المآكل . فلا يلام إذا كان
 في اتباع الناس لنصيحته خسارة على المطاعم أو الصيدليات ،

ولا يطلب منه أن يسكت عن محاربة التخمّة والافراط لأن
أناساً يستفيدون إذا تخم الناس ويخسرون إذا أخذوا بالحمية
والاعتدال .

* * *

وقد قيل له مرة : لماذا يفرغ جهده في المطالبة باستقلال
الهند ولا يفرغ هذا الجهد فيما هو أعظم من ذلك وأكمل ؛
وهو المطالبة بالأخاء العالمى أو بالوحدة العالمية ؟ .
فكان جوابه غاية في الاقناع وغاية في الدهاء ، وقال
لسائليه - وهم من الصحفيين الأمريكيين - : إن الأخاء العالمى
لا يصلح إلا لأخوة أحرار ، وأنه إذا كان مقصوراً على
المنتصرين في الحرب ، فغاية ما يرجى منه أن يمكن فريقاً من
فريق ، وأن يقسم العالم إلى أعداء غالبين وأعداء مغلوبين .
فإذا صدقت النية في التبشير بالأخاء بين بنى الإنسان فليكن
أخاء بين أحرار ، وليدخل في زمرته المهزومون في ميادين
القتال ، ولا يعامل أحد من هؤلاء المهزومين معاملة التشفى
والانتقام .

* * *

وغنى عن القول أن غاندى لم يكن ليحرم المقاومة العنيفة
على أهل الهند ويبيحها لغيرهم من الأمم في سبيل غاية من

الغايات . فمن شاء أن يقاوم عدوه بالسلاح فهو وشأنه فيما يشاء . وقد كان غاندى يكتب إلى « شيان كاي شيك » زعيم الصين فيحيي فيه جهاده في تحرير بلاده ، ولكنه إذا سئل رأيه في أفضل الوسائل فليست لديه وسيلة أفضل من « الالهسا » لدفع كل خطر وتبليغ كل مقصود . وبخاصة إذا كان المقصود هو تعميم الأخاء بين بنى الانسان وإقامة الوحدة العالمية بين جميع الشعوب . فسا من بلاء يحول بين الناس وبين إقامة هذه الوحدة الا كانت « الالهسا » ترياقاً له أنجمع من كل ترياق ، ولا استثناء في هذا لشيء قط حتى بلاء الفاشية أو بلاء النازية أو بلاء المذاهب المادية . فسا على الناس إلا أن يكفوا عن مقاومة عنفها بمثلها ، وأن يكفوا عن معاونتها في مطامعها ، وأن يقرنوا الكف بالكفاف والقناعة ، فإذا بهذه الغاية الموموقة أدنى إلى هذه الوسيلة من كل وسيلة يعتمد عليها الساسة والدعاة .

ومن البديهي أن رجلاً كهذا لا يضمّر في طوية نفسه عداً لأحد من خصومه أو الساخطين عليه ، وكثيراً ما كان يخرج أولئك الخصوم ويوقعهم في الحيرة والارتباك بجزائر عمله ، كما كان يفعل حين يعلن المقاطعة أو عدم التعاون

أو ينذر الصيام حتى الموت أو يتحدى القوة والقانون ،
ولكنه لا يبالي بخرج من يخرج وحيرة من يحار ما دام هو
مستريح الضمير ، وأنه لمستريح الضمير أبداً ما دام في حدود
، الاهمسا ، التي هي في شرعه رأس الحكمة وجماع الفروض
والواجبات ، أو مادام مخلصاً في اجتناب العدوان ، مخلصاً في
منع الحرج لو استطاع .

* * *

وإذا كانت هذه أساليبه في معاملة الدولة البريطانية
لاجرم يجرى على هذه الأساليب نفسها في معاملة الطوائف
الهندية من غير النحلة الدينية التي ينتمى إليها . فكان يعطف
على طائفة المنبوذين ويطلب لهم حقوقاً مساوية لساير الحقوق
ولا يبالي ما يلهمه من الغيظ في صدور المتعصبين من البراهمة
بهذه الدعوة التي تخرق سنن الحياة الهندية من أقدم عصورها ،
وكان يأبى اضطهاد المسلمين ويثير عليه السخط من جراء هذه
المجاملة التي أودت بحياته . وسئل مرة وهو يطالب الانجليز
بالجلاء عن الهند كلها : هل هو على استعداد لتسليم الحكومة
الهندية إلى جماعة الرابطة الاسلامية إذا وجب قيام حكومة
موقوتة في فترة الانتقال بين جلاء الانجليز وقيام الحكومة
الهندية الدائمة ؟ سأله تاجر مسلم من بومباي هذا السؤال باسم

القائد الإسلامى الأعظم محمد جنة ، فكان جوابه : نعم
بلا قيد ولا شرط ولا تحفظ ، إننى أقبل فى هذه الحالة تسليم
الحكومة الهندية لجماعة الرابطة الإسلامية فى أقاليمها وفى
غير أقاليمها .

ومن أبناء الطوائف من يتهمة بالمكر والمداجاة فى سياسته
مع هذه الطوائف ، وأنه يظهر لها الحسنى ويطن التعصب
لأبناء نحلته من ورائها . قالوا : ومن أدلة ذلك أنه نذر الصوم
حين همت الحكومة البريطانية بتقسيم دوائر انتخابية ،
للمبوزين ينفردون بالانتخاب فيها ، لأنه كان يخشى أن تتمزق
أوصال البلاد وتنطلق فيها دواعى الفتنة بهذا التقسيم .

قالوا : ومن أدلة ذلك أيضاً أنه كان على رأس قادة
المؤتمر فى مناقشة « الباكستان » وتبادل السكان .

وهذه ولا ريب تهم خليقة أن تقال فى أمثال هذه الأحوال
ولكن غاندى لم يزعم قط أنه منبوذ أو أنه مسلم ، ولم يزعم
قط أنه خارج عن نحلته واعتقاده ، فلا يطلب منه أن يكون
من أبناء هذه الطوائف فى طويته وسعيه ، ولا أن ينكر على
طائفته كل ما تدعيه ، وما لم يطلب منه هذا فالحقيقة التى لا تقبل
المكابرة أن إنصافه للطوائف أكرم إنصاف ينتظر مع
هذا الخلاف .

ومن السخف أن يقال إن الرجل وقف حياته « للاهمسا »

ونفض عنه قن الحياة وشهواتها ليروج السياسة الطائفية من وراء هذا الستار .

فهو مخلص في عقيدته وفي سياسته غاية ما يستطيع من إخلاص ، وليس في طاقة الإنسان وراء هذا الاخلاص غاية لمستطيع .

ولست نظريات « الالهة » هي موضع البحث حين نبحث في قدرة غاندى السياسية أو في برامج الوطنية .

فإن إنكار القوة العنيفة كل الإنكار خطأ لا شك فيه ، وإن الإيمان بالقوة العنيفة كل الإيمان خطأ كذلك لا شك فيه .

وكل مذهب سياسى يمكن أن يقال في جملته ما يقال عن مذهب غاندى في معرض التخطئة والتصويب .

ولمّا موضع البحث في هذه القدرة السياسية ما اقتدرت عليه ، وما أنجزته على هوى غاندى وعلى غير هواه .

مثل غاندى في ذلك مثل من ينشئ قوة كهربائية لغرس الأزهار والرياحين ، فتنشأ هذه القوة وتغرس بها الأجام والأدغال وكثير أو قليل من الأزهار والرياحين .

فلا نسأل في تقدير تلك القوة : ماذا أراد المهندس ؟

ولسكننا نسأل ماذا يجدى مراد الآخرين لو لم يعطهم المهندس تلك القوة ؟ وقد كان غاندى مهندساً عظيماً لأنه أنشأ تلك القوة ، وإن ترك الانتفاع بتصرفها في أيدي المقادير .

مفتاح شخصية

سيرة غاندى فى معيشته من أبسط المسير التى عرفناها
لعظيم من عظماء العالم قديمه وحديثه ، ولكن هذه السيرة على
بساطتها قد اشتملت على جملة من النقائص ، قلما عرفت عن
حياة عظيم .

إن الرجل ، عصرى ، بزمته وتعليمه ، تعلم فى أحدث
الجامعات ، وعاش فى أحدث البيئات الإنجليزية ، وتثقف فى
بلاده وفى أوربة على النمط الحديث ، ولكنك تحسبه من عجائز
القرون الوسطى إذ سمعت مثلاً برأيه فى الطب والعلاج .
فكان يأبى أن يدخل لقاح الجدري فى جسمه ، لأنه
مأخوذ من جسم البقر ، ويقول لمن حوله إنهم فى حل من
التوقى بهذا اللقاح ، أما هو فلا يستحل له لنفسه وإن كان
لا ينكر فعله فى الوقاية .

ولم يقبل أن يعالج بالجراحة فى السجن إلا حين رأى
مدير السجن يضطرب بين يديه ويخشى العاقبة إذا مات وهو
سجين عنده ، لما يحدثه موته فى السجن من سوء الأثر فى سمعة
الدولة البريطانية .

ومرض ابنه الثاني بذات الصدر ، فأصابه الهزال ، واحتاج إلى غذاء أقوى من الأغذية النباتية والأغذية المباحة في الشريعة الجينية ، وأشار الأطباء بإطعامه البيض وحساء الفراريج وغيرها من الأطعمة الحيوانية . فأبى غاندى أن يغذى جسماً حياً بجسم حي ، وإن كانت حياة ولده في خطر ، وكانت هذه التغذية منقذة له في رأى الأطباء ، وأبرأ ذمته بعرض الأمر على ولده ، وقال له إنه يرجو خيراً من استخدام العلاج المائى Hydropathetic Treatment لمدواة علته ، فكان الولد سرأيه حقاً ، وأبى الصبي أن يأكل البيض والفراريج ، مكتسفاً بعصير البرتقال وبعض الأغذية المباحة ، معتمداً على وصفة الأطباء المائين . فشامت المقادير أن يتم له الشفاء . ومن رأى غاندى في الأدوية عامة أن ضررها أكبر من نفعها . لأن البنية كفيلة بإصلاح نقصها ، وغاية ما يستفيدة المريض إذا أتخم معدته أو جار على قواه فاستشنى بالدواء ، أن يغريه هذا الشفاء بالعودة إلى الخطأ والتماذى فيه . ولولا ذلك لقوم معيشتهم فاستقام .

على أن المهاتما يستعين بالنظارات وبالأسنان الصناعية ، ولا يرى في استخدامها خروجاً على سنة التقشف وترك الفضول .

إلا أن هذا الرجل الذى يتخرج هذا التخرج من المساس
بحياة مخلوق لم يتخرج من قتل عجول ولا من الإشارة باستخدام
المقلاع فى طرد القردة التى تغير على الحقول ، وهى أكثر من
أن تطاق حيث كان يقيم فى « أحمد آباد » . ولكنه لم يقبل
قتل العجل إلا بعد أن برّحت به آلام المرض تبريحاً لا يرجى
شفاءه منه ، ولم يقبل تعريض القردة للوت برمية حجر هنا
أوهناك إلا لأنها كانت تعرض للوت والجوع حياة الأدميين .

* * *

وكان غاندى يعيش فى عصر « الصور المتحركة » الذى
غلبت فيه شهرة الممثلين والممثلات على شهرة الساسة والعلماء ،
وتسامع فيه الأميون بين القرى السحيقة بأسماء أبطالها
وبطلاتها حيث لا يسمعون بما وراء قريتهم فى سائر الشئون .
ولكنه مع هذا لم يعرف من هو « شارلى شابلن » حين
زاره فى العاصمة الانجليزية وحمل إليه حاجبه بطاقة الممثل
الكبير . فسأل الحاجب : من يكون السيد صاحب البطاقة ؟
وأغرب من هذا أنهما لما التقيا رأى الحاضرون فى ذلك
المجلس الطريف ما لم يخطر لهم على بال : رأوا أمير الجد
والنفسك هو الذى ناوش أمير الفكاكة واللّهو ضاحكاً مستغرباً
طوال فترة الحديث .

وكان غاندى يؤمن بأن « الموكشا ، أو اعتزال العلاقات الجنسية هو سبيل الخلاص الأعظم ومعراج الروح إلى عالم الصفاء والخلود .

وكان يؤثر المذهب الكاثوليكي على المذهب البروتستانتي في الديانة المسيحية ، ويقول إن الرهبانية هي التي صانت للكنيسة الكاثوليكية نضرتها وحفظت عليها قداسها . وقد أقسم وهو في نحو السابعة والثلاثين قسم التبتل المعروف عندهم بالبرهماشاريا Brahmacharya فاعتزل زوجته منذ ذلك الحين .

ولكنه لما عرضت له مشكلة الأياشى الصغيرات جرد نفسه للعناية بتزويجهن وأوصى الشباب أن يقبلوا على الزوج من هؤلاء الفتيات المهجورات . خلافاً للعرف الذى قضى فى الهند بتحريم الزواج عليهن مدى الحياة ، لأنهن منذورات لأزواجهن فى عالم الجسد وفى عالم الروح . ولما سئل رأيه فى المعقّمات أنحى عليها أشد الانحاء ، لأنها تجعل العلاقة الجنسية بين الزوجين محض شهوة ، وتسلبها المسوغ الوحيد لقيامها ، وهو إنجاب الأبناء .

* * *

وكان غاندى صحفياً يصدر صحيفة دورية ويكتبها ويواظب على إصدارها وكتابتها .

ولكنه حذر من الصحافة وأسف لتهافت الناس عليها ،
فقال غير مرة بمختلف العبارات : « أقول لكم إن الصحافة
لن تعطيكم شيئاً فيه لكم مصلحة دائمة . وإنما لن تعطيكم شيئاً
يساعدكم في تكوين أخلاقكم . ولا أجهل مع هذا ولع الناس
بها في هذا الزمان . فهو محزن ومخيف » .

نقائض كثيرة من هذا القبيل في أعماله وفي وصاياه .
فهل يقال من أجل ذلك أنه لغز من الألغاز النفسانية
التي تحيرنا في نقائض بعض العظماء .
لا نحسب أنه لغز غير مفهوم ، وإن بلغت نقائضه أضعاف
ما أشرنا إليه ، لأن الشخصية المألوفة هي الشخصية التي تعمل
ما لا تنتظره منها ، أو الشخصية التي تفاجئك في كل تصرف
من تصرفاتها بمصدر جديد تصدر عنه في أعمالها وأقوالها .
وليس غاندى كذلك على التحقيق .
لأننا إذا عرفناه لم ننتظر منه غير ما فعل وغير ما قال ،
في جميع هذه الأحوال .

إننا لانحاسب غاندى محاسبة الفيلسوف ، ولا محاسبة
الحاكم ، ولا محاسبة الفنان .

وإنما يوزن غاندى بميزانه الذى ليس له ميزان غيره .
وهو ميزان الناسك المصلح الجاد فى نسكه وإصلاحه : مطلبه
الأول هو خلاص الروح قبل كل شىء وبعد كل شىء ، وليس
فى السكون كله ما يعدل عنده هذا الخلاص ، لأنه اتصال
بالإله مصدر الخير والسعادة ، وكل ما عداه فهو اتصال بما
دون الإله .

قال فى ترجمة حياته : « إن أعمالى فى ميدان السياسة
معروفة الآن فى الهند ، بل معروفة على نحو ما فى العالم
المتحضر بأسره . وهذا كله ليس بذى شأن كبير عندى .
فإن ما أردت أن أبلغه فى هذه السنين الثلاثين هو تحقيق
روحى وتصحيحها ؛ أو هو لقاء الله وجهاً لوجه . والوصول
إلى — الموكشا — أو الخلاص . »

فالرجل كما أسلفنا ناسك جاد فى نسكه قبل كل شىء وبعد
كل شىء ؛ عنايته الكبرى منصرفة إلى المسائل الأبدية التى
تحسب بأعمار الأكوان ولا تحسب بأعمار الآحاد . ولكنه
زعيم الهند وقائد أبنائها فى طريق الحياة القومية . فلا مناص
له من العناية بمسائل الحاضر وشواغل الساعة ، ومن هنا يأتى
التناقض لا محالة . كما لا بد أن يأتى فى كل توفيق بين مسائل
الأبد الباقى ومسائل الساعة العابرة .

قد يقال : وما للناسك الجاد في نسكه والسياسة ؟ إنه غريب عنها وهي غريبة عنه . . . عليه أن يعتزلها مع الدنيا ، وأن يدع للناس أمر دنياهم يدبرونه على هواهم ، وينجوب بروحه وضميره من هذا الزحام ، إلى صومعة من صوامع الوحدة والقنوت .

وهذه حقيقة تقال وتسمع في سيرة غاندى وأمثاله .
ولكنها حقيقة ناقصة ، لأنها حقيقة من جانب واحد ، وهو الجانب الذى يملكه غاندى ويختاره ، دون الجانب الذى يساق إليه على الرغم منه ، وهو قيادة الهند بأجمعها في طريق الخلاص .

إن الهند لا تنفعها إلا زعامة واحدة : وهى الزعامة التى تخاطب روحها وتنفذ إلى صميم وجدانها .
إن زعامة السياسة الذين ينغمسون في الدنيا تضلها وتؤذيها وتثير فيها الريبة وسوء المظنة .

فلم تخلق لها زعامة أصلح من زعامة الرجل الذى لا يستراب في مقاصده ونياته ، وهو الرجل الناسك المقبل على عالم الروح .

فالهند لا تترك غاندى إذا تركها .
وهو إذا تركها كان أقل من غاندى وأصغر . لأنه يؤثر

خلاصه على خلاصها ، وينظر فيما يريجه ولا ينظر فيما يريجهها .
 وإنما يكون ترك الزعامة « تضحية » عندما تكون الزعامة
 كسباً وجاهاً لصاحبها ، فيقال إنه ضحى بالكسب والجاه في
 سبيل العزلة الروحانية .

أما الرجل الذى يغنم من العزلة ولا يغنم من الزعامة ،
 فالتضحية عنده أن يعيش بين الناس ويعمل مع الناس ، لأنه
 يعطيهم كل ما يستطيع إعطاه ، ولا يأخذ منهم شيئاً من الأشياء ،
 فى عالم الجسد ولا فى عالم الروح .

ومثل هذا الرجل لن يعمل غير ما عمل غاندى ، ولن
 يقول غير ما قال . فليس فى وصايا زعيم الهند على هذا الاعتبار
 لغز مستغرب . بل هى وصايا التى تجرى فى مجراها ونفهم
 معناها ، وكل ما عداها فهو الغريب الذى يحتاج إلى تفسير .

* * *

وقر فى يقين « المهاتما » أن آفة العالم كله ، وآفة الهند
 خاصة ، هى الحضارة الآلية . لأنها تحجب عن الإنسان مطالبه
 العليا وتشغله بمطالب لا يحتاج إليها .

فهذه الحضارة الآلية لا تغنى الإنسان ، بل تخلق له الحاجات
 التى هو غنى عنها ، وتسخره فى سبيل هذه الحاجات المصطنعة ،
 فيتهالك عليها ويتنازع فيها ، ويضرب على العدوان من جراء
 هذا التهاك وهذا النزاع .

وليس لهذه الآفة دواء في عقيدة غاندى غير البساطة الطبيعية ، وهى الاستغناء عن كل ما يمكن الاستغناء عنه ، ووضع الآلة والصناعة فى وضعهما الاصيل ، وهو خدمة الإنسان فى ضروراته ، وسد نقص الطبيعة فى خدمة هذه الضرورات .

وهو لا ينكر العلاج بالطب الحديث لذاته ، ولا ينكره على طريقة الخرافين الذين يستبدلون به طباً آخر ينوب فيه علاج الجهل عن علاج المعرفة والتجربة العلمية . ولكنه يرى أن العلاج الطبي ضرورى فى حالة الحضارة الآلية ولا ضرورة له ولا فائدة فى حالة البساطة الطبيعية ، ولعله لا يخلو من الضرر إذا شفى به المريض ، فاعتمد عليه وانحرف عن سواء الطبيعة لأطمشاته إلى إمكان الشفاء عن طريق العلاج .

فالبنية التى يلتزم صاحبها معيشة البساطة لا يختل مزاجها ولا يصعب — عند اختلاله عرضاً — أن يعود بتدبير البنية السليمة إلى سوائه . ولكنه إذا تناول الدواء فشفاه تعود مخالفة البساطة ولم يحذر عواقب المخالفة ، فأضعف بنيته عن قدرة التعويض والتصحيح ، واستمرأ العبث بطعامه وشرابه وأسلوب معيشته لأنه لا يحذر عقباه .

أما علاج المرض بتغذية الجسم بالأغذية المحرمة فى شريعة

الهند فذلك شيء آخر . لأن الأمر فيه يرجع إلى التعارض بين واجبين والموازنة بين أى الواجبين أولى بالترجيح على حسب اعتقاد المريض أو على حسب مشيئته واختياره .

فغاندى الذى يسوم أهل الهند أن يعرضوا عن فتنة الحضارة الآلية يعلم أنهم لا يقدرّون على ذلك إلا بقوة تعصمهم من تلك الفتنة ، وهى قوة الإيمان .

فهذا الإيمان هو الحصن المنيع الذى ينبغى ألا تنفتح فيه ثغرة ، ولا يتزلزل له أساس .

فإذا وقفت الحياة الفردية أمام هذا الإيمان فهذه هى الحيرة أو هذا هو مجال الحسم والإيثار .

وغاندى إذن لا يهمل العلاج بالطب إهمالاً للحياة ، بل صيانة لكل حياة .

وإذا رجعنا إلى المبدأ لم نجد خلافاً بين غاندى وبين المصلحين من جميع النحل والعقائد . لأنهم يؤمنون جميعاً بصيانة الحياة الإنسانية ، ويؤمنون مع ذلك بمبدأ آخر لا اختلاف بينهم عليه . وهو : أن هذه الحياة لا تصان بكل ثمن ، وعلى الرغم من كل فريضة توجبها العقيدة أو توجبها الأخلاق .

والفرق بين غاندى وغيره من المصلحين هو اختلاف

العقيدة ، لا اختلاف الرأى فى هذا المبدأ المتفق عليه .
فهناك أشياء تهون فيها الحياة فى سبيل هذا المبدأ كلها
تعارضت الحياة وسلامة الضمير والوجدان .

ولا معارضة للضمير عند المسلمين والمسيحيين مثلاً فى
تغذية المريض أو الصحيح بأحوم الحيوان . ولكن هذه
المعارضة قائمة فى عقيدة الهنديين ، واحترام هذه العقيدة أمر
لا يترخص فيه رجل يقيم دعوته كلها على الإيمان ، ويعلم أن
الإيمان هو العصمة الوحيدة التى يغلب بها فتنة الحضارة وفتن
السياسة والسطوة والثراء .

ولك أن تقول أنه غير مصيب ، ولكنك لا تستطيع
أن تقول أن فى هذه الحالة لغز غير مفهوم .

ولك أن تقول أيضاً أنه يكلف الناس ما لا يستطيع ،
ويحملهم على حمل لا يقوى عليه كل إنسان من أتباعه ومريديه .
ولكنك إذا قلت هذا وجب أن تذكر أن غاندى فى هذه
الخصلة وسائر الدعاة والمصلحين سواء ، لأنهم جميعاً يفرضون
ما يحمل أتباعه ، ثم لا يتبعه إلا القليل من القادرين عليه ، ويبقى
الأكثر وهم يحاولونه فيفلحون تارة ويخفقون تارات .

* * *

ولا تناقض بين اشتغال غاندى بالصحافة واستهجان

لتهافت الناس عليها والاشتغال بأحاديثها وأخبارها ، فإنما الصحافة عنده صلة روحية بينه وبين قرائه ، وليست للقارىء صلة روحية بصحافة تشغله باللغظ والثرثرة وتضيع عليه الوقت في التطلع والمحال .

فالجد في النسك هو تفسير كل لبس في حياة هذا الناسك العظيم ، ولولا هذه القوة الخلقية الهائلة لما تأتى له أن يكبح شهواته وهى ميسرة كل التيسير إن شاء . ومنها شهوات يستعصى كبحها على أقدر الرجال ، كشهوة الحكم ، وشهوة الترف ، وشهوة المال .

ولولا هذه القوة الخلقية الهائلة لما استنفض الهند كلها في صراع يحتاج منها إلى كل قوة مدخرة فيها ، وهى فقيرة فى قوة العلم وقوة السلاح .

ولو أن الهند تلقته زعيما يلبس أحدث الأزياء ، ويغشى أظرف الأندية ، يأخذ بكل بهجة من مباهج العيش الحديث لما زاد على الهند ولا على العالم شيء ، ولسكنها كانت تخسر كل ما استفادته من تلك البساطة الهائلة ، بالغاً ما بلغ فيها التناقض والإغراب .

* * *

على أن الجد فى النسك لا يدل فى غاندى خاصة على خلق

من خلائق التجهم والصرامة ، وهما أول ما يبادر الذهن من كلمة النسك وكلمة الجدمقترنتين .

فلم يكن في الرجل تجهم ولا صرامة . بل كانت له سماحة تفيض بالمرح والفكاهة في كثير من المواقف ، وكانت له فطنة لمواقف الضحك الطبيعية ، لا تخطئها نكتة بريئة من الإساءة والتكدير .

وتعبيراته عن أخطر الأمور تدل على هذه الخليفة السموحة وهذه السليقة الفكاهية التي يلطف بها جهامة العظام والخطوب . سألوه مرة : كيف تغيب عنه معائب عقيدته التي يدين بها نفسه ويدين بها أتباعه ومريديه . فحلّ المشكلة أظرف حلّ وأصدقه في كلمات قليلة ، وقال : إن عقيدة المرء كزوجته . وهو لا يحب زوجته لأنها أجمل النساء وأسلمهن من العيوب ولكنه يحبها ويلازمها لأنها أقرب النساء إليه .

ودعاه نائب الملك مرة في جمع من كبار الموظفين ورجال الدولة ، فجاءوه ببعض الشراب الحلو فاعتذر ودعى بكوب من الماء . فلما جاءوه به أخرج من حزامه صرة صغيرة ، فأذاب ما فيها وهو يضحك ، وشربها « في صحة نائب الملك » وإذا هو ملح ممنوع ، يشربه في المكان الذي يصدر منه المنع والتحريم .

ودعاه نائب الملك مرة أخرى فسأله حفيده الصغير :
إلى أين تذهب يا جداه ؟ قال الجد الوقور متبسطاً : إلى
نائب الملك .

قال الطفل دهشاً : ولكنك تذهب دائماً دائماً إلى نائب
الملك . فلماذا لا يحضر نائب الملك مرة إليك ؟
فلم يزل غاندى يضحك حتى فارق الدار .

إن الفكاهة فكاهتان : فكاهة النعمة وهى سلاح عدوان
ودفاع ، وفكاهة السباحة ، وهى عاطفة تغتفر صفائر الناس كما
يغتفر الآباء صفائر الأبناء .

وقد كان نصيب غاندى من هذه الفكاهة أوفى نصيب .
إلا أنها فكاهة من قبيل السليقة النفسية وليست من قبيل
الملكة الفكرية ، فهى تسرى إلى الشعور ، وقبلها تروى
بالكلام .

* * *

وقد تناقض النسك والحصافة فى رأى أكثر الناس ، بل
قرنوا — قديماً وحديثاً — بين الإعراض عن الدنيا وانخلاع
العقل والشعور . كأنهم — لإكبارهم متاع الدنيا — لا يصدقون
أن أحداً ينصرف عنها وله حظ من العقل الحصيف .
ولكن غاندى على التخصيص كان نقضاً بارزاً لهذا

التناقض المزعوم . فقد كانت له حصافة وكان له دهاء ، وكان من الأذكياء المعدودين ، وإن لم يكن من المعدودين بين أعظم المفكرين .

فقد يأتي بين أعظم المفكرين في الصف الثاني أو الثالث . وقد يأتي في الصف الثاني أو الثالث أيضاً بين أعظم الساسة وخطباء الجماهير .

ولسكنه بين جبابرة الروح في الرعيل الأول لا مرأى . وهذه القوة الهائلة فيه قد استطاع ما لم يستطعه أحد في الصف الأول من صفوف المفكرين ، أو صفوف الساسة والخطباء .

تقريره ونقده

كان غاندى يناوىء الحكومة البريطانية فى إبان الحرب العالمية الثانية ، فحنق عليه بعض الإنجليز واتهموه بأنه من أعوان هتلر، أو أنه من أولئك الذين عرفوا فى إبان الحرب باسم «الطابور الخامس» ، وهم الذين يساعدون النازيين بإزعاج خصومهم فى إبان القتال . فتصدى للدفاع عنه رجل من أكبر رجالات الإمبراطورية : وهو المارشال سمطس القائد السياسى الفيلسوف ، وقال إن غاندى أرفع من أن تلصق به تهمة . لأنه رجل من أعظم رجال العالم ، وهيات أن يسخر لخدمة غرض من الأغراض .

وكان برنارد شو يقول : إن غاندى من العظماء الذين لا يجود التاريخ بأمثالهم إلا مرة فى كل ألف سنة .

وكان رومان رولان — وهو من أكبر كتاب الغرب وأشرفهم فى العصر الحديث — يضع غاندى فى طليعة أقطاب الإنسانية ، ويبشر الغرب بأمثله العليا ، وله فى سيرته كتاب يشف عن إجلال بالغ وحب عميق .

ولما نعى غاندى إلى أمم الغرب أسف البابا لمتعاه وهو

رأس الكنيسة المسيحية الكبرى ، وقال أسقف من رجال الكنيسة الأمريكية : إن غاندى مسيح . ثم عطف فقال : إنه لايعنى بذلك أنه كالمسيح أو أنه يتشبه بالمسيح . ولكنه يعنى أنه السيد المسيح بعينه قد عاد إلى عالم الجسد لإتمام رسالة الحب والصلاح .

وتلقى نواب فرنسا منعاه وقوفاً خاشعين .
ورثاء رئيس الوزارة الإنجليزية — أكبر خصومه فى ميدان السياسة — فأطنب فى تعظيمه والأسف لفجعة الشرق ، وبني الإنسان ، فيه .

وليس فى هؤلاء جميعاً أحد يؤمن بديانة غاندى ، بل ليس فيهم أحد يرى فى صلاح الحياة البشرية مثل رأيه . فهم لايعظمونه لأنهم يوافقونه ويتبعون عقيدته ورأيه ، ولكنهم يعظمونه لأنه عظيم .

وإذا لم يكن تعظيم الرجل مقصوراً على شيعته وأهل وطنه وعقيدته ، فتلك آية العظمة الإنسانية لامراء .

فليس العظيم من لا يخالفه أحد . فقد يبلغ العظيم غايته من العظمة ومخالفوه أكثر من موافقيه .

وليس العظيم من خلا من ناحية نقص . فقد يكون حسبه أنه امتلاء بناحية عظمة ، وكان فيه موضع



غاندي درومك وولان

لنقص ، كما كان فيه موضع للكمال .
 وإذا ظهر نقص العظيم فليس تعليل ذلك أنه غير عظيم ،
 وإنما تعليله أن الإنسانية تتسع لأنواع شتى من العظمت ،
 وأنواع شتى من الدعوات ، وإنما لن تسكون في جملتها إنسانية
 كاملة إن كانت لا تعرف إلا نوعاً واحداً من العظمة وناحية
 واحدة من نواحيها .

وتعدد العظمت معناه الوحيد أن كل عظمة منها لازمة ،
 وأن كل عظمة منها متممة للأخرى ، وأنها تتم من ناحية
 النقص فيها . فلا غرابة في استهداف عظيم للنقد والتعقيب .
 بل لعله لا يستهدف للنقد والتعقيب إلا لأنه عظيم . .
 وهكذا كان غاندى في دعوته ، وهكذا كان في تفكيره
 على الخصوص .

كان فيه متسع للإعجاب الكبير ، ومتسع للنقد الكثير .
 وأحق ناحية فيه بالنقد هى الناحية التى استحق بها
 الإعجاب ، وهى ناحية الكفاح فى سبيل الروح ، أو هى ناحية
 الكفاح بين الأشرف والأخس من طبيعتى الإنسان .
 وأول ما ينقد من هذه الناحية أنه حصر ميدان الكفاح .
 فالرجل الذى كان يؤمن بأن الأبد كله هو معركة بين
 الروح والجسد ، قد أخرج كفاح الحضارة من هذا الميدان ،

وحصر الكفاح كله في روح الإنسان وأعضاء الإنسان .
 لكنّ كفاح الحضارة في الواقع هو الميدان الأكبر
 لغلبة الفكر وغلبة الروح ، أو لتقوية النفس صعداً في معارج
 البأس والانتصار .

فالهرب من الحضارة هرب من ميدان هذا الكفاح ،
 أو هو على الأقل انتصار في غير ملحمة ، وبأس لم يتعرض
 لتجربة تدله على نفسه ، أو تدل غيره عليه .

إن سيئات الحضارة هي سيئات الجسد في مجال أوسع
 وأبقى . . وفرصة الروح ، أو فرصة العقل ، في ترويض هذه
 السيئات - هي فرصة الأمم مجتمعات متعاقبات . فهي ألزم من
 معركة الصومعة المنعزلة بين روح إنسان وجسد إنسان .

وإذا كان الإنسان الفرد يجد روحه في كفاح مطالب
 الجسد وشهواته ، فالأمم التي لاعداد لها تجد روحها في كفاح
 مطالب الحضارة وشهواتها ، أو في هذا الصراع الذي يتلاقى
 فيه الخير بالشر ، والقوة بالضعف ، والمعرفة والعلم بالجهل
 والغباء .

وما تعلبت الإنسانية من شيء قط كما تعلبت من الشدائد ،
 وفي مقدمتها الحروب ، وهي شر ما يبتلى به الناس .
 فكل حرب يأتي بعدها للإنسانية تاريخ جديد .

فتحت الحروب الصليبية أبواباً كانت مغلقة بين المغرب
والمشرق ، وفتحت الحروب العثمانية أبواباً كانت مغلقة بين
العالم الحديث والعالم القديم ، فظهرت القارات الخمس بعضها
لبعض ، بعد أن كان شطر منها مطوياً وراء الحجاب .
وجاءت الحروب الحديثة فتقدمت معها المخترعات ،
وأصبحت هذه المخترعات شغلاً شاغلاً للأمم في سبيل الدفاع
عن الحياة ، ولم تكن قبل ذلك تشغل أحداً غير الخاصة من
العلماء والمخترعين .

وقد يستطيع العالم الواحد أن يعرف أسرار القنبلة
الذرية ، ولكن الأمر يحتاج إلى اهتمام أمة كبيرة ليحصل
ذلك العالم على الملايين من الذهب ، لينبني بها المصانع ويتخير
بها الآلات ، ويزدهر بها في مراتب التدقيق والإحكام .
وهكذا تساق الإنسانية إلى المعرفة بعصا من الضرورة ،
وتندفع مع الشر فتنتهي إلى الخير ، وتنقاد للشهوات ونوازعها
ثم تقبض على زمامها بعد طول الجراح .
ومن طريق العقل يترقى العالم والحكيم .
ولكن الأمم لا تندفع معه إلا إذا اندفعت بغريزة
قاهرة ، دفاعاً عن الحياة أو طلباً للجد والسيادة .
والطبيعة تعللنا ذلك كل يوم وتعلمنا إياه في ولادة
كل مولود .

فكل أب وكل أم يسهران الليل ويشقيان بالنهار لحفظ النوع وتربية الأطفال . ولكن قلّ أن يعيش طفل في هذه الدنيا لو قيل للآباء والأمهات : إنكم تحفظون النوع وتعملون لغير أنفسكم ، ولم تعطهم الغريزةُ سروراً وغبطةً تختلج بها الأجساد ، إذ يحملون هذه التضحية من أجل بقاء الحياة لأحفاد لا يرونهم بعد مئات السنين ، وألوف السنين .

وهكذا تساق الإنسانية إلى التعاون بين أبنائها والتضامن بين أقويائها وضعفائها . يطمع هذا في السيادة على الدنيا ، وينبرى هذا للدفاع عن حياته . فلا يسود هذا ولا يدافع هذا عن حياته وكفى . بل يعملان معاً للوحدة الإنسانية في أوانها المقدور . . .

ومن طريق الحروب ومخترعات الحضارة تقاربت الأمم واشتركت في هذه الوحدة الإنسانية . فاشتبكت بينها المواصلات والمعاملات ، وبلغ من تقارب الكرة الأرضية ما لم يبلغه في عصر من العصور : ينطق القائل بالكلمة فإذا هي مسموعة بعد هنيهة على مسافة الألوف من الفراسخ ، كأنما القائل والسامع يجلسان في حجرة واحدة ، ويقع الحادث في الصباح فلا يعود صباح بعده حتى يملأ خبره ما تملأه الشمس من الأرضين والبحار ، وتهتم الدولة القوية بعمل من الأعمال

فتنظر إلى أصغر دولة في أقصى الأرض لعلها تأبى ما تريده ،
ولعلها تقلب ميزان النصر في أزمة من أزمت النضال ،
فيتحول النصر من فريق إلى فريق .

من أين كنا نبلغ هذا لو أحجمنا عن الحضارة من
مرحلتها الأولى ؟

إننا أطعنا المادة غاية ما تطاع ، حتى كشفنا عنها الستار ،
فاذا هي نور .

وعلم الناس من خبر « القنبلة الذرية » أن المادة شعاع ،
وأن الشعاع « حاسبة رياضية » تدركها العقول ولا تتوقف على
كثافة الأجساد .

فعادت بنا المادة إلى عالم العقل المجرد ، ولكن من طريق
الإيغال فيها لا من طريق الإحجام عنها . أو من طريق
الكفاح لا من طريق التسليم .
ذلك كله حق نلسه الآن .

وذلك ما لم يدخله غاندى فى حسابه ، وهو يبشر بدعوته .
ولكن هل كان فى وسعه أن يدخله فى حسابه ، وتبقى له
دعوة تدعى ؟

إن المثل هنا أعون على الجواب من إطالة الشرح والبيان .
فالطلب قد تعلم ولا ريب من الأوبئة والطواعين ، ولولا

الوباء بعد الوباء لما عرف الأطباء أسرار الجراثيم ، ولا
حقائق الأمراض .

ولكن الطبيب مع هذا يوصى بالدواء ، ولا يوصى
بالطاعون .

وغاندى هو الطبيب ، وشروط الحضارة هي الطاعون !
فإن كانت له في هذا العالم دعوة فلن تكون هذه الدعوة
إلا كما دعاها ، وإن لم تكن قط فتلك هي الخسارة على الناس
في هذا الميدان الفسيح الذى يتسع لجميع الدعوات .

ومثله بين المصلحين كمثلى العازف الماهر الذى لا يسمع
وحده . ولكنه إذا سكت كانت كل فرقة موسيقية ناقصة
بغيره .

ومكانه من العظمة أنه يتمم هذا النقص .
وليس مكانه من العظمة أنه خلا من كل نقص يعاب عليه .
وحسبه ذلك من مراتب الكمال التى تتاح للإنسان .

مصر

في صباح يوم السبت (الثامن والعشرين من شهر فبراير سنة ١٩٤٨) ، خرجت من أرض الهند آخر فرقة من الجيش البريطاني كانت معسكرة فيها ، بعد أن احتلها هذا الجيش بمئات من الفرق ، زهاء مائتي سنة .

خرجت من ميناء بومباي .

ووقفت قبل خروجها تبادل فرقة من الجيش الهندي تحية السلاح .

وعزفت موسيقاها بنشيد « حفظ الله الملك » ونشيد الهند الوطني « قاندي ماترام » .

وهتف قائدها « جاى هند » أى لتحي الهند... وكان آخر من صعد إلى السفينة ، في عودة كان مقدمها في الواقع قبل مائتي عام .

وبهذه الصفحة طوى السجل الذى كتبت صفحته الأولى في الثالث والعشرين من شهر يونية سنة ١٧٥٧ : وهو يوم المعركة التاريخية في حياة الشعوب الهندية ، وحياة الدولة البريطانية : معركة « پلاسى » التى بسطت يد اللورد

« كلايف ، على العروش فى الهند والشعوب .
 كنت أقرأ فى صباى كتاب «الأبطال» ، لتوماس كارليل
 الفيلسوف الإيقوسى الكبير ، وكنت أعجب منه بالفصل الذى
 كتبه فيه عن شكسبير ، وكان أعجب ما يعجبنى منه خاصة قوله :
 إن شكسبير أعز على الأمم التى تتكلم الإنجليزية من الهند
 وكنوزها . لأن الهند وكنوزها ستخرج من أيدينا فى يوم
 من الأيام . أما شكسبير فهو الفخر الذى لا يسترد ،
 ولا يزول .

ستخرج الهند من يد الدولة البريطانية فى يوم من الأيام ؟
 نعم . إن يوم الخروج لا بد آت . ولكن متى ؟ متى يحين
 ذلك الحين الذى نظر إليه الفيلسوف ؟

لم نقدر بأية حال أنه حادث من الحوادث التى نشهدها فى
 هذه الحياة ، وأنه سيصبح عما قريب خبراً من أخبار البرق ،
 التى يوالينا بها فى هذه الأيام .

وأكبر الظن أنه لولا رجل واحد ظهر فى الهند ، لتأجل
 موعدة إلى حياة أبناء ، بل حياة أحفاد .
 ذلك الرجل الواحد هو « غاندى » بلا مرأى .

لقد اشتركت فى تهيئة ذلك المنظر الصغير — على ميناء
 بومباى — عوامل لا تحصى فى صفحات .



غاندى بين حفيدتيه

عوامل بعضها من الهند نفسها ، وبعضها من القارة
الآسيوية في جملتها ، وبعضها من الكرة الأرضية بأسرها .
ولكنها إذا وجب أن تحصر في شخص واحد ، لم نجد
شخصاً واحداً نحصرها فيه ، غير ذلك الجسد الضئيل : ذلك
الروح العظيم .

إنه هو الرجل الواحد الذى يمكن أن يقال أنه عَجَّل
بذلك اليوم حتى دخل في حوادث هذه السنة (سنة ١٩٤٨) ،
لليلا . . .

لأنه هو الرجل الواحد الذى أدخل في روع الإنجليز
أن بقاءهم في الهند عناء لا جدوى لهم فيه ، وأن الجلاء عنها
أصلح لهم من البقاء .

* * *

فقد كان من الجائز — بعد هزيمة اليابان في الحرب
العالمية الثانية وزوال الخطر اليابانى عن الهند — أن توازن
بريطانيا العظمى بين البقاء والجلاء فيبدو لها أن البقاء أيسر
كلفة من الجلاء . ولكن غاندى هو الذى قلب لها كفتى
الميزان فأقنعها بأن الأمر معها على نقيض ذلك ، وأن جلاءها
أيسر كلفة عليها من بقاءها ، لأنه جعل المقاطعة السياسية
والاقتصادية سلاحاً قاطعاً يضاعف مشقة الإنجليز في حكم

الهند والاضطلاع بتبعة الدفاع عنها ويقلل من منافع هذا الحكم ومزاياه . وكان مرجع الفضل في نجاحه إلى إخلاصه وتجرده المطلق من المآرب الشخصية ، فلم يشق على أحد من خاصة أهل الهند وعامتهم أن يقنع بالكفاف وأن يتحدى المحن والشدائد ، وهو يرى أمامه رجلاً عالمياً موفوراً الكرامة والوقار يقنع من السكساء والغذاء بكلفة لا تتجاوز بضعة دريهمات .

وأعانه على رسالته أنها رسالة من طبيعة الهند وعصرها ، لأنها رياضة روحانية في بلد « الفقراء » ، والنسك . فصح فيه أنه رد الهند إلى روحها أو رد روح الهند إليها . وبحق جعل الهنود مغزله شارة الهند على علمها المثلث ، ذي اللون « الأخضر ، الأبيض ، البرتقالي » . . . وحولوه إلى مغزل « بوذا » الذي يغزل به خيوط الحياة .

وقد وعى القوم درسهم من الحرب العالمية الأولى . فلما نشبت الحرب العالمية الثانية لم يقبلوا كما قبلوا في الحرب الأولى أن يبيعوا عاجلاً بنسئ ، وأخذوا على أنفسهم العهد أن ينصروا قضية الديمقراطية ، وأخذوا على الإنجليز العهد أن يكون لهم من هذه الديمقراطية نصيب لا وكس فيه ولا تسويق ، وكان غاندى على طليعة « المتطرفين » ، في هذه الحملة . لأنه

جعل ندامها على كل لسان : « أتركوا الهند ، ... وأصر على الجلاء بغير شرط ولا قيد ولا تسويق .

وبدأت هذه الحملة والحرب قائمة ، والجيش اليابانية تغير على بورما وسنغافورة ، وتجد لها أشياء في داخل الهند من أبنائها الذين استجابوا للدعوة (آسيا للأسيويين) . وكانت مسألة الخلافة الإسلامية قد انتهت في أعقاب الحرب العالمية الأولى ، فعمل المسلمون في الحركة الوطنية غير مرتبطين بخطة من خطط السياسة البريطانية قبل دولة الخلافة ، سواء فيما اختاروه من مقاومة أو وفاق .

وراحت حكومة بريطانيا العظمى تقترح الحل بعد الحل ، وتشرع النظام بعد النظام ، وتستشير تارة وتنفرد بالرأى تارة أخرى ، فانتهت إلى حل موقوف في حكم البلاد الهندية بحملتها ريثما تنجلي عنها وتنفض من تبعاتها كلتا يديها ، وهو حل الحكومة الاتحادية التي يقوم عليها مجلس وزراء وهيئة نيابية يشترك فيها الهندوسيون والمسلمون .

فخط هذا الحل أمام عقبة كأداء تنفرد بها الهند خاصة بين بلاد العالم ، وهى عقبة الأقليات . وليس شأنها في الهند كشأنها في سائر البلاد الأخرى ، لأنها في الهند أقليات وليست بأقليات .

فالمسلمون في الهند كثرة غالبية في بعض الأقاليم ، وقلة صغيرة في بعض الأقاليم ، وقلة كبيرة في أقاليم أخرى .
وبينهم وبين الهندوسيين اختلاف شديد في الجنس واللغة والعقيدة ، لخصه السيد محمد علي جناح رئيس الرابطة الإسلامية في كلمة واحدة حين قال : كيف يُحكم بنظام واحد قوم يعبدون البقرة وقوم يأكلونها ؟

وأعضل ما في الأمر أن وطنية الهندوسيين هي في صميمها وطنية عقيدة روحانية ، أو عقيدة دينية ، وأن زعيمها لم يفلح في دعوته إلا لأنه قاد دعوتها الوطنية من هذه الناحية .
وما في كل يوم يجد المسلمون أمامهم زعيما كغاندى يعنصم بالسماحة في قوة وصدق طوية ، ويستطيع أن يروض أتباعه على العدل والرفق وحسن المعاشرة وفض المشكلات بترضية المخالفين في الرأي والعقيدة .

على أن غاندى نفسه قد غالته يد هندية لأنه استهجن ذبح المسلمين والتشنيع بنسائهم وأطفالهم على مشهد من الشرطة وجنود الحكومة الهندية . فإذا أوجس المسلمون شراً من حكومة كهذه فلهم العذر كل العذر في شرعة المنصفين .

ولم يجدوا بداً في النهاية من إقامة دولتين منفصلتين :

إحداهما هندوسية والأخرى إسلامية تعرف باسم الباكستان .
وينتقل من يشاء من أتباع إحدى الدولتين إلى بلاد الدولة
الأخرى مع تنظيم الهجرة وتبادل السكان .

ولم يكن تنظيم الهجرة بالأمر الميسور ، لأنه بمثابة اقتلاع
ملايين من الأسر من أما كن قد استقرت فيها وارتبطت فيها
بمعاملاتها وأسباب معيشتها ، إلى أما كن أخرى لا تتسع لها
في كثير من الأحيان ، وليس هناك من يعوض أحداً عن
ماله المتروك في البلد الذي يهاجر منه ، أو البلد الذي
يهاجر إليه .

وما هو إلا أن أعلن قيام الدولتين حتى كانت مشكلة
السكان هذه مثار الخصومات والفتن في كل بقعة يعيش فيها
المسلمون مع الهندوسيين والسيخ منهم خاصة . وانطلق أناس
من غلاة المتعصبين يطاردون المسلمين من مساكنهم ويعملون
القتل والسلب فيهم ، ويغيرون على المساجد فيلوثنوها أو
يهدمونها أو يحولونها إلى معابد هندية وينصبون فيها صورهم
وأوثانهم ، ولا يعترضهم أحد من الشرطة والجنود ، بل
يشاركونهم في هذه الجرائم ، ويحرضونهم عليها ، ويزودونهم
بالسلاح الذي يعلم العارفون بالهند أنه كان محظوراً على جميع
الهنود في عهد الدولة البريطانية . واقترب هؤلاء الغلاة من

الآثام والمجازر في صيف تلك السنة (١٩٤٧) ما لعله لم يحدث قط في هذا الزمن في بلد من البلدان .

وكان على رأس المجرمين الذين فعلوا هذه الأفاعيل جماعة وطنية متهوسة تعرف باسم « مهاسابها » أو الجماعة الكبرى تتلخص مبادئها في إقامة حكومة هندوسية واحدة والقضاء على حكومة الباكستان وتجنيد جميع الشبان ومطاردة المسلمين ومعاملتهم معاملة الجواسيس المهددين لأمن الدولة الهندوسية وتحريم الدخول في الدين الإسلامي على أبناء النحل الدينية الأخرى .

وكانت هذه الجماعة لا تبالى في نشراتها اليومية — وهي تعرض الغوغاء على القتل والسلب — أن تؤكد لهم علانية ، معاونة الجيش والشرطة ، وحمايتهم من الاعتقال والتحقيق . وكان غاندى أشد أهل الهند نقمة على هذه الفتنة المخزية وجرت على لسانه كلمات يأس وشكاية لم تسمع منه قط في أحلك أيام جهاده ، فكان يقول لمن حوله : هذه أحوال لا تغرى بالعيش . ويسأل مع الشاعر : إلى متى أقيم في هذه الدنيا ألعب هذه اللعبة ؟ يعنى الحياة .

ولما أعرض المهيجون عن نصائحه المستكررة نذر الصيام حتى الموت أو تجاب مطالبه ويتحد المسئولون على العمل بها :

وهي كما نشرتها صحيفة نيويورك تيمس (في يناير سنة ١٩٤٨) «السماح للمسلمين بإقامة احتفالهم السنوي في معبد مهرولى القريب من دلهي، وإعادة المساجد المغتصبة إليهم، وصيانة حياتهم وأموالهم، والترحيب بعودتهم إلى مساكنهم وتأمينهم في السفر، والكف عن مقاطعتهم في الحياة الاجتماعية»

ومضى في صومه خمسة أيام، ثم جاءه الزعماء وقادة الجماعات مستغفرين، وقطعوا له العهد على قبول وصاياه جميعاً والعمل بها تَوْأً، فعدل عن صيامه، واستطاع أن يتوجه إلى مهرولى، ليشهد مع المسلمين مولد قطب الدين بختيار، الذي احتفلوا به في السابع والعشرين من شهر يناير، وعاوده الرضى بعد ما انتابه في الفترة الأخيرة من يأس قائم، وحزن أليم.

إلا أنها الفتنة قد جن جنونها وانقطع عنها، ونظرت إلى غاندى وهو يكبح شهوته، كما ينظر الوحش المحتاج إلى الحارس الذى يدفعه عن فريسته. إنه قد يدع فريسته إلى حين لينشب أظافره في الحارس الذى حماها.

ففي العشرين من شهر يناير ألقي طالب اسمه «مادان لال»، قذيفة على غاندى لم تصبه، فلم يجفل ولم يرتجف منه عصب. ومضى إلى الصلاة وهو يوصى الشرطة ألا يعنفوا على «الصبي المسكين».

واتجهت الشبهة في هذا الحادث إلى جماعة رياضية على النظم الفاشية ، تسمى جماعة المتطوعين لإنقاذ الوطن . ولكن التهمة لم تثبت عليها وظهر أن الجريمة من عمل متآمرين ينتمون إلى « الماساها » أو الجماعة الكبرى .

ولم يردعها إخفاق هذه المحاولة عن جريمتها التي بيئت النية عليها ، فعادت إلى الاقتراع بين أعضائها على من يتولاها وينجح فيها ، فكانت القرعة من نصيب فتى من محررى الصحيفة المتطرفة « هندوراشترا » ، يسمى : « ناثورام فيناياك جودس » . فتقبل القرعة متهللاً ، لأنه كان من أشد المبغضين لغاندى ودعوته الإنسانية . وكان كثيراً ما يقول : « إن لى رسالة لا بد من أدائها » .

وما نظن أن قاتلا ضريت نفسه بالشر كما ضريت نفس هذا التعس المفتون ، فحسبك نية القتل إذا كان القتل هو غاندى ، تلك وحدها كافية . ولكنها لم تجمع كل ما فى طويته من ضراوة إبليسية . فقد تعمد بالقتل وهو فى موقف يثنى يد الشر ويخاق الضمير النادم لمن مات فيه الضمير . تعمد بالقتل وهو يسعى إلى الصلاة بين حفيدتين بريئتين ، وينظر إليه نظرة العطف الوديع التى يغمر بها كل من حيّاه .

كان غاندى فى يوم الجمعة (الثلاثين من شهر يناير) يتحدث



« جودس » قاتل غاندى

أقحمت إسمي على التاريخ بأحرف من نار ، ..
صدق افما في وسع التاريخ أن ينساه ، لأنه في تاريخ بني
الإنسان كله إسمٌ وحيد .

وتم العجب من سيرة غاندى حياً وميتاً .
رجل رفع أبصار الناس إلى أوج السماء ، فهبط بها قاتله
إلى قرارة الجحيم .

رجل وهب للهند حريتها ، فسلبته الهند حياته .
رجل أراد أن يمسح العدوان من ظهر الأرض ، فمات
معتدى عليه .





جہان غاندی علی شاطیء النہر المقدس — نہر « جہنا »

هنا هو الإنسان

وجئت حين سمعت النبأ (١).

وما أظن النبأ إذا قيل على إطلاقه محتاجاً إلى تفسير .
فما كان للكرة الأرضية من شاغل غيره في زاوية من أقصى
زواياها . لقد أوشك أن يكون حادثاً من حوادث الكون
بما رحب ، بل كان حقاً حادثاً من حوادث الكون . لأنه
على أوثق اتصال برسالة الروح .

وجئت وطال بي الوجوم ، بل ذهلت وطال بي الذهول .
لأن الخبر إنما يهد له خبر مثله ، ولأن الحادث إنما يقاس
على نظيره ، ولا نعرف نظيراً لمصرع غاندي في كل ما سمعنا به
من أنباء العالم ، وفي كل ما عرفناه من حوادث التاريخ .

لقد قتل من قبل مصلحون وقديسون .

ولكنهم قتلوا بيد السلطة التي تخاف منهم على نفسها ،
أو قتلوا بأيدي الطغام المهتاجين وهم يسفون أحلامهم ،
ويحطمون أصنامهم ، ويبدلون شعائرهم ، وينكسون منابرهم .
فيثور الشر في نفوسهم ، ويهجمون على القتل وهم لا يفقهون
ولا يفقهون .

(١) نشرت غداة وصول النبأ بمصرع غاندي .

ولكن مصرعاً كمصرع غاندى لم يحدث قط فيما علمناه من حوادث التاريخ .

لم يحدث قط أن ترتفع يد بالشكر إلى رجل لايسفه الأحلام ولا يبشر بغير السلام : رجل فى الثامنة والسبعين يسعى إلى الصلاة يتوكأ على حفيدتين بريئتين ، ويكف الشر فى النفوس بوقار سنه وضعف شيخوخته وطيبة سكينته واستسلامه . رجل يدين بما يدين به قاتله المتعصب لعقيدته . وقصارى ماتنهى إليه تلك العقيدة - عند ذلك القاتل التعس - أن قتل البقرة حرام ، وأن قتل القديس العظيم مباح .

خارقة من خوارق الإثم تشده العقل وتشل الخيال ، فلا تدرى الأذن كيف تسمعها ، ولا يدرى الحس كيف يحملها إلى رأس أو ضمير .

لقد خرج غاندى إلى البحر يتحدى « قانون الملح » المشهور ، وخرج وراءه ألاف من الرجال والنساء . وأمرهم أن يصبروا للضرب ولا يضربوا ، وأن يتعرضوا للأذى ولا يردوه بمثله . ثم لاح ذلك الشبح الهزيل للجند القائمين فى طريق البحر وهم صفوف من وراء صفوف ، فانفجرت صفوفهم له وتركوه يمضى فى سبيله ، ثم انطبقت من بعده على الجموع التى تبعته لتعمل فيها الضرب واللكم وتهوى عليها بالعصى والهرافات .

فإذا بقزم الجسد مارد الروح ، قد وقف عند البحر خاشع
الرأس دافع العينين ، يبكي وحيداً لأنه سلم وحده ، وأصيبت
من ورائه تلك الرؤوس والأجسام .

لقد مثل بين يدي القضاء فسأله قاضيه : أمتذب أنت
بحكم القانون ؟ فقال : نعم متذب ، وأعود إلى الذنب متى
قدرت عليه .. فأحس القاضي إحساس المذنبين أمام هذا
المتهم الذي لا يحس إلا إحساس الشهداء . وقال قولته التي
سيخلد بها في سجل القضاة : إنني أحكم عليك مكرها ،
وسأكون أول من يهتك مبهجاً ، إذا استخدم حاكم الهند
حقه في العفو عنك ، وهو حق لا يملكه القضاء .

مستعمرو بلاده هابوه وبجلوه .

غاصبو وطنه أحجموا عن المساس به والقسوة عليه .
ويشاء النحاس لذلك الوطن المنكوب ، أن يشتمل على
مخلوق من أبنائه : مخلوق من أبناء البشر ، تتحرك يمينه
بالقذيفة القاتلة إلى صدر لم يبق فيه مع الحب الشامل لبني
الإنسان — ولكل بني الإنسان — غير جلود وعظام .

قل منذ أيام أن قذيفة ألقيت على غاندى ففجأ منها .
فوقع في الأنفس أن نجاته من تلك القذيفة حدث من
أحداث الطبيعة لاغرابة فيه .. كأن المادة نفسها تهاب أن

تمضى بالأذى إلى هيكلك ذلك الروح .. كأن القذيفة ترتد
- ولا تستطيع إلا أن ترتد وحدها - عن القداسة التي أخضعتها ،
ولم تخضع لها قط في تجارب الحياة .

فلما قيل إنه قتل بيد إنسان ، قد والله سألت : كيف
تحركت عضلة في جسد بشرى بضربة قاتلة لذلك الشهيد ؟
قد والله سألت عن اليد التي لا تعقل ، لأنها كانت خليقة
أن تعجز عن الحراك إذا سيمت مثل هذا الحراك الذى يشد
عن كل قانون ... ولم أسأل كيف سولت نفس ، ولا كيف
هيجس ضمير .. لأن من الهول الهائل أن يدخل مثل هذا الجرم
في حساب نفس أو ضمير .

وباسم الوطن وخدمته يقتل القاتل ويصاب الشهيد .
باسم الوطن وخدمته ، يعتدى أكبر مسىء إلى وطنه على
أكبر محسن إلى ذلك الوطن المنكوب .

فليس فى العالم صديق للهند ولا عدو من أعدائها ،
تخامر ذرة من الشك فى فطيرة من الفطائر يقدم عليها
المتعصبون هناك ، إذا كان النهى عن التعصب ذنباً يستحق
عليه مثل غاندى أن يحرم نصيبه من الحياة .

ومن غاندى الذى يحرم هذا النصيب الضئيل ؟
غاندى الذى تدين له الهند بأعظم الديون ..

غاندى الذى وهب الحرية للهند ، وصنع للهند ما لم يصنعه
هندى قط منذ خلقها الله .

غاندى الذى تفدى حياته بحياة الملايين ، لأن الإنسانية
لا تزال مفتقرة إلى أمثاله ، ولو كان فيها من أمثاله ألوف ..
فكيف بافتقارها إليه وهو واحد مفرد فى هذا الزمان .
كبر على الهند أن يظهر من أبنائها أشرف إنسان
فى زمانه . فأبى عليها النحس ، إلا أن يظهر فيها أشأم إنسان
فى كل زمان .

ومن يقتل شرف الإنسانية كلها إلا مخلوق يخجل من
إنسانيته كل إنسان . بل كل حى من الأحياء ، وكل ضارية
من ناهشات الأبدان ، وكل ساعية من نافثات السموم .

ويسألون : ألا جزاء يحزى به وراء الإعدام ؟
فما الإعدام فى جانب الوصمة الأبدية يحملها المسكين
وحده فى تاريخ البشرية بأسرها ، فيذكر وحده إذا ذكر الخزى
الذى لا خزى مثله فى طوايا التاريخ .

هذا هو الإنسان فى بؤرته السفلى .
وذاك هو الإنسان فى ذروته العليا .
وفى خشوع لا ينتهى ، نحى الإنسان المشرف للإنسانية .

وفي حياه لا يذتهى ، نزوى البصر عن خزى الإنسانية
فى جميع توارينها .
أعانها الله على كفارة تمهد بها العذر لنفسها ، بين يدي
ضميرها ، وبين يدي كل حى من خلائق الحياة تحمله هذه
الغبراء ...
وبين يدي الله ...



عظماء الهند ينتظرون جثمان غاندي
فى الوسط : سردار باتل ، وأبو الكلام آزاد ، والشاعرة نايڊو ، ونهرو

شركة المطابع
مطبعة برشته - شارع - تلبرون ٥٨١٤٩

٣٠ ثمن النسخة الواحدة